الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون – تيارت

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

مسار :تاريخ

مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

الموسومة بـ:

الوصف الجغرافي لمدن الأندلس والمغرب الأقصى من خلال كتابات ابن الخطيب السلماني (713هـ/ 776هـ) ق 8هـ – 13م

إشراف

سموم لطيفة

إعداد الطالبات :

بلبينة شهرزاد

بن جاري سهير

مكاوي إكرام

لجنة المناقشة

حباش فاطمة	رئيساً
سموم لطيفة	مشرفا ومقرر
الطيب بوجمعة نعيمة	عضوا مناقشاً

السنة الجامعية

2020/2019م- 1441-1442ه

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

الشكر الأول والأخير لله العلي القدير، الذّي من علينا بنعمة العقل، وحب المعرفة، والمواصلة في المشوار ومجابهة الأخطار والتوكل على من بيده الجنة والنّار، فأتممنا هذا العمل بفضل الله . . .

فلك الشكر ربي ماحيينا

ولك الحمد حتّى ترضى علينا

نتوجه بالشكر إلى أستاذتنا "سموم لطيفة "الفاضلة التي قبلت إشرافها علينا، فكانت مرشدة وموجهة ومصححة .

ونشكر كل من ساعدنا ومدّ لنا يد العون من قريب أو بعيد، وفتح لنا بابه ولو يُوصده، ولم يبخل علينا بشيء .

إلى كل هؤلاء نتقدم بالشكر لمساعدتهم وعطائهم فمنهم من أعار كتاب وآخر نصيحة كرماء فكان كالمرهم للجرح والداء .

إهداء

نهدي ثمرة جهدنا إلى الوالدين الكريمين

وإلى إخوتنا وأخواتنا

وإلى كل الأهل

وكل الأحباب والأصدقاء

وكل من ساعدنا في إنجاز هذا العمل

شهرزاد ، سهير ، إكرام

مقدمة

إن المتتبع لتاريخ بلاد الأندلس وبلاد المغرب يجده خصبا ، حيث أخرج أعظم المؤرخين الذين وصفوا ودونوا مشاهداتهم أثناء مسيرة رحلاتهم ، وكانت الرحلة باب لمعرفة العالم .

وقد اتجه الرحالة إلى للوقوف على بعض من المظاهر الاجتماعية والسياسة للمدن التي قصدها لاستقرائهم القيم والأفكار والجوانب المادية والروحية ، وهذا ما سعى له ابن الخطيب من خلال رحلته التي تشكل بدورها الأسلوب الحياتي للناس ومعالمهم التراثية.

والواقع أن الظروف العلمية والسياسية التي عاش فيها ابن الخطيب أتاحت له الفرصة في الطواف بأنحاء مملكة غرناطة وبلاد المغرب الأقصى ورصد تنوع المعالم الحضارية للمدن التي زارها وأن يكشف عن الكثير من أحوال الأمم وعاداتهم لتحمل لنا هذا الصورة في ثناياها كثيرا من آلات التفاعل والتلاقي الحضاري ، ويعتبر هذا الأخير محور دراستنا حيث تطرقنا إليه بعنوان "**الوصف الجغرافي من خلال كتابات ابن الخطيب** " في "القرن الثامن هجري " الثالث عشر ميلادي.

وتظهر أهمية موضوعنا أيضا في كونها أعطت مشاهداته ورحلاته في المدن الأندلسية والمغربية أهمية خاصة انه درس جوانب مهمة من تاريخ تلك المدن، فوصفت حياتها الاجتماعية وقدمت تصورا واضحا على مدى التنوع والاختلاف في العادات والتقاليد ، وفي تلك الرحلات نقل صور عن كل المناطق التي قصدها مما يؤكد بأن الثقافة الإنسانية متنوعة ومتعددة وعكست بذلك حقيقة التفاعل بين الإنسان والمجتمع.

ومن بين أسباب اختيارنا للموضوع فترجع إلى سببين الأول ذاتي لأنه من خلال دراستنا لتخصص العصر الوسيط درسنا الأندلس والمغرب هذا ما دفعنا لاكتشاف هذه المدن،أما الموضوعي فينطلق أساسا من أهمية الموضوع كون الدراسات التاريخية وصفت مدن الأندلس والمغرب الأقصى واعطتنا وصفا دقيقا .

ولم تعد الأحداث محصورة في بوثقة المجال الجغرافي بل تعدت هذا الأمر وتوسعت مجالاتها إلى اقتصادية واجتماعية ودينية انطلاقا من هاته نأتي إلى أهمية موضوعنا ، فهو موضوع فكري معروف بأحداث سياسية تاريخية فتبلورت إشكالية العامة لموضوعنا "كيف كان وصف ابن الخطيب لمدن المغرب والأندلس كمؤرخ بالدرجة الأولى وكيف كانت كتاباته الجغرافية ؟: تترتب الإشكالية الفرعية :

- كيف كانت حياة ابن الخطيب؟ ما هي أهم انجازاته العلمية؟
- ما الذي لفت ابن الخطيب في الأندلس حتى قام بوصفها؟
- ما الدافع الذي أدى ابن الخطيب لوصفه المغرب ؟

إن كل هذه التساؤلات سيتم معالجتها وفق مقتضيات البحث العلمي والذي يتطلب الدقة والابتعاد عن التمجيد والتقديس ولذا فإن المنهج المتبع في دراستنا هو المنهج التاريخي يتتبع مراحل أحداث الدولة' وتناول حياة ابن الخطيب والأحداث التاريخية في كل من الأندلس والمغرب وجمع كل مادة تاريخية تفيدنا في بحثنا ثم تطبيق المنهج الوصفي الذي يخدم بحثنا ويصف لنا الدول الأندلسية والمغربية وكل ما يتعلق بها في كل الجوانب وأخيرا الوصول إلى استنتاجات تاريخية .

غير أن بحثنالم يخلو من المصاعب التي تتمثل في مرضي أنا وإحدى وزميلاتي بوباء (الكورونا) . وقطع المواصلات من اجل تحصيل وجمع المعلومات التي تخدم موضوعنا هذا اعتمدنا على مصادر ومراجع أهمها : "خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس" لابن الخطيب" الذي افادنا في وصف المدن المغربية الأندلسية وكذلك " نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب" للمقري(ت1041ه-1631م) الذي اختص في ذكر مؤلفات ابن الخطيب وإضافة إلى : "أزهار رياض في أخبار عياض" للمقري .الذي تناول لنا أولاد ابن الخطيب ووصيته.

أما المصادر التي ركزت لنا على الوصف الجغرافي "كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار " لابن الخطيب الذي ذكر لنا كل المدن الأندلسية والمغرب وكل ما وصفه ابن الخطيب وكل المدن التي مر بها ، وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة الذي ذكر لنا كل جوانب غرناطة في شتى المجالات "تاريخ ابن خلدون لديوان المبتدأ والخبر " ابن خلدون الذي ذكر لنا نكبة ابن الخطيب .

و"كتاب جذوة الاقتباس" في من حل من الاعلام مدينة فاس لاحمد ابن القاضي المكناسي ت (960-1025ه)الذي افادنا في سلف ابن الخطيب ،وكتاب "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب للابن الخطيب " افادنا في وصف المدن المغربية.

أما المراجع فمنها:"تاريخ الجغرافياوالجغرافيين في الأندلس" لحسين مؤنس ت(1416ه)الذي أفاده في تحليل كتب ابن الخطيب وبين لنا اختلاف ابن الخطيب عن الرحالة آخرون، "علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية" رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي التي أفادتنا في وصف المدن المغربية ،"مجلة العلوم الإسلامية ساجد مخلف حسن "التي أفادتنا في الجانب الاقتصادي.

أما الخطة المعتمدة لإنجاز بحثنا فهي تتضمن ثلاثة فصول ، فالأول بعنوان حياة ابن الخطيب تحدثنا فيه عن حياته ونشأته العلمية ومؤلفاته وأبنائه وصيته ووفاته ووفاة زوجته ونهاية حياته

أما الفصل الثاني: فقد تحدثنا فيه عن المدن الأندلسية التي وصفها: غرناطة، مالقة-مربية – مدينة واد آش-بسطة-برشانة-ألبير-بجانة-مرسانة-فنانة.

أما الفصل الثالث: فقد تضمن الحديث عن المدن المغربية التي مر بها ووصفها سلا- مدن المغرب الأقصى ، وبعدها ختمنا بحثنا بخاتمة تتضمن أهم الاستنتاجات المحصلة من دراسة هذا الموضوع

الفصل الأول

حياة لسان الدين بن الخطيب

حياة ابن الخطيب:

يعتبر القرن الثامن هجري في مملكة غرناطة عصر النضج والازدهار ظهرت فيه مجموعة من المفكرين والشعراء مثل : ابن سلبطور الهاشمي ، وإبن خاتمة الأنصاري شاعر ألمرية ، والوزير ابو عبد الله بن الحكيم اللخمى ، والوزير ابو لحسن بن الجياب ، وابن جزي ، والوزير ابن الخطيب والوزير ابن زمرك ، وغيرهم ممن حفل بهم هذا العصر .

-وكان ابن الخطيب من بين هؤلاء الشخصيات التي ظهرت في الأندلس في القرن الثامن الهجري 713ه/1313م فهو طبيب وفيلسوف وكاتب وشاعر من الطراز الأول وهو مؤرخ بارع، وهو اخيرا وزير وسياسي .

-وكان ابن الخطيب اعظم ما تمخضت عنه الأندلس ، من قبل من تلك النماذج العلمية والأدبية الباهرة ، التي إزدان بها تاريخ التفكير الأندلسي وكان بتعدد جوانبه وسعة أفاقه أكثر من وزير سياسي وكاتب وشاعر بلغ القيمة في كل منها.[1]

-كان ابن الخطيب صاحب رحلات وأسفار ، وكان إلى ذلك مغرى بالكتابة يجد فيها لذة كبرى كأنها كانت مراحه ومتنفس صدره عما كان يثقله من هموم ومتاعب ومخاوف[2]

ومن مظاهر ذلك أن الرجل كان مصابا بالأرق لا يكاد ينعس من الليل إلا الوقت القليل ، فإن ابن الخطيب كان من أولئك الذين ابتلوا بالعيش طول العمر وسيف دافينوس معلق بشعرة فوق رؤوسهم ، لأن مطامحه في المال والسلطان كانت واسعة، وكان نطاق أعدائه لهذا فسيحا، و لم تخل

[1] لسان الدين الخطيب ،الإحاطة في أخبار غرناطة ، محقق محمد عبد الله عنان،ج1 ،ط2،1393ه/1973م ،دار النشر مكتبة الخانجي بالقاهرة،ص ص18.17

[2] حسين مؤنس،تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس،تقديم محي الدين صابر ،ط2،1986م، ص588

حياته لحظة من ناس يد يدبرون مصرعه ويطلبون دمه وكانت حياته كلها فرارا من الشراك والأحابيل ولعب حزينا مريرا مع الموت المتكالب[1]

-فقد دون لنا ترجمة نفسه كاملة في نهاية كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة وقص علينا الكثير من الحوادث حياته الشخصية والسياسية في مختلف كتبه الأخرى كاللمحة البدرية ولاسيما نفاضة الجراب التي يسرد فيها فيها حوادث إقامته الأولى في المغرب وسلا وقد دون له معاصره وصديقه ابن خلدون ترجمة في تاريخه الكبير ووصف لنا مأساة مصرعه المؤثر[2]

وفي التعريف بلسان الدين بن الخطيب وذكر أنباءه التي يروق سماعها ويطيب وما يناسبها من أحوال العلماء الأفراد والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد فهو الوزير الشهيد لسان الدين الطائر الصيت في المغرب والمشرق المزري عرف الثناء عليه بالعنبر والعبير المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها ومصنفاته تخبر عن ذلك وهو الوزير الشهير الذي خدمته السوق والأفلام و اعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة والأحلام [3]

1-اسمه ومولده:

هو لسان الدين : وفخر الإسلام بالأندلس في عصره[4] اسمه :محمد كنيته: أبي عبد الله لقبه :مشرقي لسان الدين "ذوالعمرتين ،ذو الوزارتين فهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد ابن علي بن احمد السلماني والسلماني نسبة إلى سلمان وقد دخل الأندلس عقب الفتح منهم جماعة من الشام ومنهم سلف لسان الدين وكان هذا اللقب يغلب عليه ولاسمي في المغرب

[1] حسين مؤنس ،المرجع السابق،ص588

[2] ابن الخطيب ،الاحاطة في اخبار غرناطة،ص18

[3] احمد المقري المغربي،نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ،الجزء3،الطبعة1، 1302ه،ص2

[4] شهاب الدين بن محمد المقري التلمساني ،ازهار الرياض في اخبار عياض ،تحقيق مصطفى السقى واخرون ،الجزء3،مطبعة فضالة ،بيت المغرب ،ص186

حيث كان يعرف بابن الخطيب السلماني وأما المقري فيقول لنا ابن الخطيب في مستهل ترجمة لنفسه في الإحاطة إنه يلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين ولم يقل لنا متى وفي أي ظرف أسبغ عليه هذا اللقب[1]

-كان سلفه يعرفون بقرطبة ببني وزير، وهم بها أهل نباهة وبيتهم بيت فقه و نجارهم نجار فرسان ، وكان جدهم لأعلا بلوشة قاضيا وهو المضاف إلى اسمه وبه يعرف ببني الخطيب ، يلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين[2]

-ولد ابن الخطيب بمدينة لوشة في الخامس والعشرون في رجب سنة 713ه (16 نوفمبر سنة 1313م) [3] وهي مدينة أندلسية تقع غربي غرناطة ما تقارب خمسين كيلو متر وكانت غرناطة في ذلك الوقت ... في عصر بني الأحمر من أعظم المدن الأندلسية إذ بلغت ذروتها وظهر كتاب المفكرين والأدباء منهم و عبد الله الذي عمل في ديوان الإنشاء مع ابن الجياب وكان ابن الخطيب قد تزين في أحضان اشترته التي عرفت بالأصالة في مدينة لوشة ثم انتقل إلى العاصمة غرناطة فنشأ بها وتلقى بها دراسته منصرفا إلى العلم منذ ولادته.[4]

ويحدثنا ابن الخطيب بأن بيتهم كان يسمى ببني الوزير ثم سموا ببني الخطيب وسبب هذه التسمية يرجع إلى جده سعيد ، وهو أول من استوطن من الأسرة مدينة لوشة وكان على الطريق الممتد من غرناطةإلى اشبيلية مارا بلوشة ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب وأورث هذا اللقب لبنيه فعرفوا ببني الخطيب من ذلك الحين كما يحدثنا عن والده عبد الله وكان من أكابر العلماء والخاصة ويترجم لنا في الإحاطة وقد ولد سنة 672ه واستقر حينا في غرناطة ثم عاد إلى لوشة مقر بيتهم

[1] لسان الدين ،الإحاطة في أخبار غرناطة ،مج1،ص ص18 19

[2] احمد بن قاضي المكناسي،جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ،دار المنصور لطباعة،الرباط 1973م1025ه ص309

[3] المصدر السابق ،مج1،ص20

[4] المصدر نفسه،ص21

قديم وبعدها إلى غرناطة مرة أخرى ليلتحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل وهو الذي جلس على عرش غرناطة في سنة(713ه/1314م ولما توفي السلطان قتيلا 725ه/1325م)خدم أعظم سلاطين غرناطة وقد ولى العرش 733ه/1332م وخدم عبد الله في ديوان الإنشاء مع كاتب والشاعر الكبير الرئيس أبي الحسن بن الجياب[1]

كانت أسرة ابن الخطيب إحدى القبائل القحطانية من اليمن ومدت الأسرة إلى الأندلس حيث اتخذت قرطبة مقراً لها ، تربى ابن الخطيب في أسرة عرفت بالأصالة والعلم والجاه [2].

2- نشأته العلمية وشيوخه وتلامذته :

نشأ لسان الدين في غرناطة التي انتقلت إليها أسرته ، مع أنه اِستقر بها منذ حداثته فإنه لم ينسى قط مسقط رأسه ومرتع طفولته " لوشة " فكانت لها في قلبه منزلة الأم ، وكان يعتني بها في شعره ويسميها " بنت الحضرة " ؛ أي بنت غرناطة ، وكانت غرناطة يومئذ أعظم مركز للدراسات الإسلامية بين الغرب الإسلامي [3] .

أخذ لسان الدين ثقافة واسعة وفي شتى العلوم نتيجة مخالطته مجالس العلم والعلماء خاصة وأن غرناطة كانت حاضرة من حواضر العلم آنذاك ، فكان من ثلة علمائها ، وكان لشيوخه فضل عليه ، وكان كثير المفاخرة بهم .

االبن هذيل : أبو زكريا يحيى ابن هذيل الفيلسوف الطبيب والعلامة الغرناطي توفي(753هـ - 1353م) درس على يده ابن الخطيب الطب والفلسفة واِختص بصحبته .

[1] لسان الدين ،الإحاطة في أخبارغرناطة ،ص20

[2] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، ج01، الطبعة ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة 1423ه، 2008م ، ص 12

[3] المصدر السابق ، ج01، ص 21.

أبو البركات : بن الحاج التلفيقي من شيوخ ابن الخطيب توفي (768هـ) من مؤلفاته المؤتمن على أبناء الزمن [1].

- أبو عبد الله وعبد المعطي العواد قرأ عليه القرآن .

- أبو الحسن الفنجاطي قرأ عليه القرآن والعربية .

- أبو القاسم ابن حزي (ت 858هـ) قرأ عليه العربية والفقه والتفسير [2].

- أبو الحسن علي بن الجباب (ت 749هـ) تأدب عليه ووصفه بالرئيس صاحب القلم الأعلى [3].

- أبي البركات ابن الحاج (768هـ) قال عنه شيخنا القاضي الشهير .

- قاضي الجماعة أبو عبد الله بن بكر .

- أبو عمر بن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير .

- أبو القاسم بن سلمون الكناني .

- أبو العباس بن يزبوه السبتي المحدث [4] .

- أبو الفخار البيري لازمه في العربية والفقه والتفسير [5] .

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج01 ، ص 25.

[2] المصدر نفسه، ج04، ص ص 457، 458.

[3] سرى طه حسين ياسين ، لسان الدين ومنهجه في كتابه أوصاف الناس في التواريخ والصلات ، مجلة كلية الامام ، الجامعة العراقية ، كلية التربية للسان ، دت ، دط ، ص ص 463، 46.

[4] المصدر السابق ، ج04، ص ص 457، 458.

[5] أحمد بابا التنيكتي ، 963/ 1036 ، نيل الابتهاج بتطيرز الديباج ، مج02، دار الكاتب طرابلس ، ترجم له ولم يذكر سنة وفاته ، الطبعة 02، 2002م ، افرنجية ، ص 104.

تلامذته :

قال المقري أعلم أنّ تلامذة ابن الخطيب الآخذين عنه رحمه الله كثيرون إلا أنّه لم يرزق السعادة في كثير منهم بل بادلوه العداوة وإجتهدوا في إيصال المكروه إليه ، ومن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد بن زمرك [1].

1- أبو عبد الله بن زمرك الغرناطي (734 /1333- 796/1393) : هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الشريجي تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة الذي لم يتردد في تتبعه بالأذى ، و لم يحجم عن الإفادة من موته المحدث [2] ، وزير كاتب وشاعر وأديب ، قال ابن الخطيب هذا الفاصل صدر من صدور طلبة ألأندلس وشارك في حملة من الفنون ، قرأ العربية على الأستاذ أبي عبد الله بن الفخار والفقه على الأستاذ أبي سعيد بن لب ، واختص بالفقيه الخطيب الصدر المحدث أبي عبد الله بن مرزوق ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقري وذاكره وقرأ الأصول الفقهية على أبي منصور وقتل وهو رابع المصنف مع من وجد معه من أهله (793هـ)[3]

2- ابن جزي الكلبي :

أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحي بن عبد الرحمن ابن يوسف بن سعيد بن جزي الكلبي [4] ولد (715هـ /1315م) فقيه كاتب قاض خطيب شاعر مجيد واله أبو القاسم شيخ ابن الخطيب روى عن ابن الخطيب جميع تواليفه مع أنه مقاربه في السن ، قال ابن الخطيب له مشاركة حسنة في فنون من فقه وعربية وأدب قرأ على والده أبي القاسم ولازمه وإستظهر بعض

[1] أحمد المقري التلمساني ، نفح الطيب ،المصدر السابق ، ج03، ص 145.

[2] حسين مؤنس ، تاريخ الفكر الأندلسي ، مكتبة الثقافة ، ط01، 1928م ، ص 40.

[3] لسان الدين ، الاحاطةفي أخبار غرناطة ،المصدر السابق ، ص 30.

[4] ابن القاضي ، درر الحجال في أسماء الرجال ، ج01، تح: محمد الحمدي ، دار التراث ، المكتبة العتيقة ، مصر ، تونس ، 1970م ، ص 08.

موضوعاته وتأدب وقرأ على بعض معاصري أبيه ثم ارتسم في الكتابة السلطانية له تفنيد في الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية ورجز في الفرائض تتضمن العمل [1] .

3- أبو عبد الله الشريشي :

تلميذ ابن الخطيب ومؤدب أولاد السلطان الغني بالله النصري تولى نسخ كتاب أستاذه الإحاطة ، فجاء في ستة مجلدات كان يثق به ويعتمد على معاونته [2]، وكان في الوقت نفسه من علماء القرآن والسنة[3].

4- أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي :

ولد بوادي آش تسعة وسبعمائة تولى الخطابة والإمامة سنة 738 ، ثم ولي القضاء لها وبأعمالها سنة ثلاث وأربعون وسبعمائة الكاتب للدولة الغادرة ولي في بلدة الخطابة والقضاء [4] .

5- الحياة السياسية على عهد ابن الخطيب :

لما توفي والده وسنحت له الفرصة المرجوة ودعي للخدمة مكان أبيه ، وكان في الثامنة والعشرين من عمره ، وتولى أمانة السر الأستاذ أبو الحسن بن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج وكاتبه الأثير ، وتلقى ابن الخطيب في ديوان الإنشاء على يد أستاذه الكاتب الشاعر المبدع ابن الجياب أرفع أساليب النظم والنثر في هذا العصر ، ولما توفي ابن الجياب في الوباء الكبير أو الطاعون الجارف في شوال سنة (749 هـ يناير 1349م).

---

[1] لسان الدين ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، تح : محمد عبد الله عنان ، ط04، ص 76.

[2] المصدر نفسه ، مج 01، ص 06.

[3] محمد بن عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط04، 1417ه ـ 1997م ، ص 486

[4] المصدر السابق ، ج03، ص 555.

خلفه ابن الخطيب في رياسة الكتاب ديوان الإنشاء ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها وكان كبير الوزراء يومئذ الحاجب أبو النعيم رضوان وهو من أصل قشتالي وقد ربي في القصر السلطاني وكان ابن الخطيب يحظى بتقديره وثقته ، وهنا برع ابن الخطيب وعظمت منزلته وتعاطف معه السلطان وآثره بثقته وجعله كاتب سره ولسانه في المكتبات السلطانية وصدر منها بقلم ابن الخطيب يومئذ ولقد جمع ابن الخطيب العديد منها في كتابه " ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب " ، ويصف لنا في ترجمته في الإحاطة مركزه في الوزارة يومئذ ما حياه بع السلطان من الثقة والإيثار في ثقته " فلقد بنى السلطان سرّه ولما يستكمل الشاب ويجمع السن ، معززة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، فاستعملني في السفارة إلى الملوك واستنابني بدار ملكه ، ورمي إلى يدي بخاتمه وسيفه ، وإئتمنني على صوان حضرته ، وبيت ماله ، ومعقل إمتناعه " [1] ، ولما قتل السلطان أبو الحجاج يوسف سنة(755 هـ أكتوبر 1354م) ، خلفه ولده الغني بالله محمد وقد إستأثر ابن الخطيب بثقته كما إستأثر بثقة أبيه من قبل وأسبغ عليه لقد ذي الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة [2] .

إستمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة بمعاونة ابن الخطيب ثم وقعت الفتنة في رمضان سنة(760هـ /1359م) فقتل الحاجب رضوان وأقصى الغني بالله وفر إلى وادي آش [3] ، وتسلم الملك أخوه إسماعيل ، وقبض على ابن الخطيب وسجن وصودرت أملاكه وإستمر في سجنه إلى أن تدخل سلطان المغرب أبو سالم ابن أبي عنان المريني فأطلق سراحه وإنتقل ابن الخطيب بصحبة

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، مج 01، ص ص 22، 23.

[2] المقري ، نفح الطيب ، المصدر السابق ،ج05، ص 80.

[3] وادي آش : مدينة أندلسية قريبة من غرناطة كبيرة تطرد حولها المياه والأنهار يجري نهرها من جبل شيلز وهو في شرقها وهي في ضفته وهي كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون والقطن بها الكثير ، صفة جزيرة الأندلس منتجة من كتاب روض المعطار في خبر الأقطار ، محمد عبد المنعم الحميري ، تح : إحسان عباس ، بيروت ، لبنان ، ط02، 1984م ، ص 80.

سلطانه الغني بالله إلى فاس سنة 761هـ [1] ، وإستقبلهم السلطان أبو سالم أجمل إستقبال وإحتفل بقدومه في يوم مشهود ، أنشد ابن الخطيب بين يدي السلطان يومئذ قصيدة من أروع قصائده يدعو فيها لنصرة سلطانه ، وهذا مطلعها :

سَلا هَلْ لديْها منْ مخْبرةٍ ذِكرٍ وهلْ أشب الوادي ونَمَى بهِ الزّهْرُ .

وهلْ يأْكُل الوسمى دار علىَ اللِّوى عِفْت أيُّهَا إلاّ التَّوهُم والذِكْرُ .

بِلادِي التِي عاطيت مشمولة الهوى بأكنافِهَا والعشب فتيان مخضرُ .

ودَوى الّذِي ربى جَناحْي وكره فَلهَا أنَا ذا مَالي جَناحُ ولا فِكرُ .

ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبد الدهر .

كفتنا بك الأيام على غلوائها فقد رأينا منها التعسف والكبر .

وعندنا بذاك المجد فانصر الردى ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر .

ولما أتينا البحر يرهب موجه ذكرنا نداك العمر فاحتقر البحر .

ومنها :

فأنت الذي تدعى إذا هم الردى وأنت الذي ترجى إذا أغلق القطر .

ومثلك من يدعى الدخيل ومن دعا بيا لمرين جاءه الغر والنصر .

فخذ بإمام الحق بالحق ثأره ففي ضمن ما تأتى العز والأجر [1].

[1] ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، تح : محمد سيد جاء الحق ، دار اكتب الحديثة ، القاهرة ، دت ، ص 89.

عاش ابن الخطيب زمناً في كنف السلطان الذي بالغ في إكرامه ، وقدرت له الرواتب فاشترى بها ضياعاً وبساتين وأوفد له سفير إلى غرناطة فجاء بأهله وولده مما زاد من نقمة أعدائه عليه ، واتهموه بالزندقة عند السلطان وبالغوا في ذلك ، فأتت لهم في الدعوة عليه بمجلس الحكم بكلمات كانت تصدر عنهم وتنسبوا إليه وأثبتوا ذلك وسألوه الحكم عليه فحكم بالزندقة وإراقة دمه ، وأرسلوا صورة الحكم المكتوب إلى فاس وأفتى النباهي بإحراق كتبه فأحرقت [2] .

لكن سلطان المغرب أبوسالم امتنع عن تنفيذ الحكم واستمر ابن الخطيب على حاله بفاس [3] ، عزيز الجانب كما لبث إلى جانبه سلطانه المخلوع الغني بالله يترقب الحوادث ويتطلع إلى ملكه ، وفي هذه الأثناء وقع انقلاب في فاس فقد فيه السلطان أبو سالم عرشه ولقي مصرعه وذلك في التاسع عشر من ذي القعدة 762هـ /136م ، واستبد بالدولة مدبر الانقلاب الوزير عمر ابن عبد الله صهر السلطان القتيل ونج أخته فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه فاستجاب له الوزير وبقي يدبر أمره بمعاونته [4].

وأخيراً تحقق له ذلك بوقوع ثورة جديدة في غرناطة قتل فيها أخوه وهنا تشبه سلطان إسماعيل على يد زوج أخته [5] عهد بنت وعندئذ وافق الوزير عمر بن عبد الله أن يقطعه مدينة رندة لكي ينزل بها مع صحبه ويتّخذها مركزاً لتدبير الخطط ، وكانت رندا يومئذ من أملاك بني مرين الأندلسية وعندها حان محمد إلى الأندلس ونزل برندة ومعه جماعة من صحبه ، ثم غزو منها ثغر مالقة ، وتكاثر صحبه وسار محمد بعد ذلك إلى غرناطة واستولى عليها وفر منافسه السلطان محمد إلى

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، المصدر السابق ، ص 26.

[2] المصدر نفسه،ص ص 26، 27.

[3] ابن حجر العسقلاني ،الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة، المصدر السابق ، ص 90.

[4] المصدر السابق ، ص 26.

[5] محمد عبد حتاملة ، موسوعة الأندلس والمغرب العربي ، دار المدار الثقافية للطباعة والنشر ، البليدة ،1429هـ - 2009م ، ص 587.

قشتالة [1] ، من نفر من أصحابه واحتمى بملكها ، فلم يعتقه بل اعتقله وأصحابه وبعث إلى محمد يطلب إليه صكاً بثبوت عذره وخيانته فبعث إليه محمد بالصك المطلوب بما اِرتكبه محمد هذا وصحبه من ضروب الغدر والخيانة واستحقاقهم بذلك لحكم الإعدام فأمر ملك قشتالة بإعدامهم وبعث برؤوسهم إلى الغني بالله وطيف بها بغرناطة ، وهكذا استرد محمد ملكه وجلس على عرشه سنة 763هـ - 1361م [2] .

وقدم عليه ابن الخطيب في غرناطة ونبأ المكانة التي كان عليها ليمكث بها زهاء عشرة أيام [3] .

وكاد محمد الغني بالله يجلس على عرشه حتى كتب إلى وزيره المنفي ابن الخطيب رسالة رقيقة ينعته فيها بأكرم النعوت ، فنزل ابن الخطيب عند رغبة مليكه وغادر مقامه الهادئ في سلا ، وجاء إلى الأندلس ومعه أسرة السلطان وولده ، ووصل إلى غرناطة في أواخر شعبان وفي الثامن من شهر رمضان أصدر السلطان ظهيراً بإعادته إلى منصبه وقلّده فيه " نجاء الوزارتين وحلاه بحلا الرياستين " وهكذا عاد ابن الخطيب إلى سابق مكانته في الوزارة [4] .

ويصف لنا ابن الخطيب سيرته في الحكم في قوله :" فاستعنت بالله تعالى عليه ، وعاهدت وجهه فيه من غير تلبس بخديعة ولا تشبث بولاية ، مقتصراً على الكفاية ، حذراً من النقد خامل المركب ، معتمداً على المنشأة ، مستمتعاً بخلق الفعل ، راضيًا بغير النبيه من الثوب ، مشفقاً من مواقعة الغرور ، هاجراً للزخوف ، صادعاً بالحق في أسواق الباطل ، كافاً عن السحال براثن السباع ، مفوتاً للأصول في سبيل الصدقة ، ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكل الحسنات ، بهذه الخطة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى ، من صلاح السلطان ،

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، المصدر السابق ،ج01ـ ص29.

[2] خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ج07، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط05، 1980م ، ص 153

[3] ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ،المصدر السابق ، ص 89.

[4] المصدر السابق ، ص 29.

وعفاف الحاشية ، ونشر الأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية ، وإنصاف الحماة والمقاتلة ، والصدع فوق المنابر ضماناً من السلطان بترياق سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ، ما الله المجازي عليه والمعوض من سهر خلعته على أعطافه ، وكذا أعملته من جرائه ، فخطراً اقتحمته من أجله فهو الذي لا يضيع عمل من عمل من ذكر أو أثنى سبحانه وتعالى " [1] .

كان ابن الخطيب رجل سياسة من الطراز الأول ، وقد إستطاع أن يوجه بعزمه وهمته سياسة الدولة النصرية أعواماً طويلة وتبدو أصالته السياسية في كثير من رسائله ، فلعلّ أهم ما يؤثر عنه في ذلك نظراته الصائبة إلى مصير الأندلس ، فقد كان هذا المؤرخ الثاقب الذهن من غير الماضي والسياسي البعيد النظر بدى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستنشق بنافذ بصيرته ما وراء الحجب من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزقته الأهواء وأضنته الفتن[2] .

5- وفاة زوجة ابن الخطيب:

وفي السادس لذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة المذكور، طرقني ما كدر شربه ونغص عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغر زغب الحواصل بين ذكران واناث في بلد الغربة وتحت سرائق الوحشة، ودون أذيال النكبة، فجلت عليها حسرتي وإشتد جزعي، وأشفيت لعظم حزني إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالته وصبرا ومكارم أخلاق، حازت بذلك مزية الشهرة حيث حكت من القطرين، فدفنتها بالبستان المتصل بالدار مدينة سلا، ووقفت على قبرها الحبس المغل لمتولى القراءة دائما عليها وصدر عني مما كتب عر ضريحها وقد اغرى به التنويه والاحتفال:

رُفِّـــعَ بَلـــي وَهَـــاجَ بَلْبَـــالي وَسَـــامَني الثُّكْـــلُ بَعْـــدَ إِقْبَـــالِ

ذخيرتـــي حـــين حـــانني زمـــني وعـــدتي في اشـــتداد أهـــوال

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ص 30.

[2] المصدر نفسه ، ص 52.

حفـــــوت في داري الضـــــريح لهـــــا تعلـــــلا بالمحـــــال في الحـــــال

وغبطـــــة تـــــوهم المقـــــام معـــــي وكيـــــف لـــــي بعـــــدها بإمهـــــال

ســـــقى الحيـــــاة فـــــبرك الغربـــــه ولا زال مناخـــــا لكـــــل هطـــــال

قـــد كنـــت مـــالي كمـــا اقتصـــى زمـــني ذهـــاب مـــالي وكنـــت آمـــالي

أمـــا وقـــد غـــاب في تـــراب ســـبلا وجهـــك عنـــى فلســـت بالعـــالي

والله حزنـــي لا كـــان بعـــد علـــى ذاك الشـــباب الجديـــد بالبـــالي

فـــانتظريني فالشـــوق يقلقـــني ويقتضـــى شـــرعتي وإعجـــالي

ومهـــدى لـــي لـــديك مضـــطجعا فعـــن قريـــب يكـــون ترحـــالي

واسمـــك مقـــاو بـــه يـــبين لـــي مـــآل أمـــري في معـــرض الفـــال[1]

6- أولاد لسان الدين ابن الخطيب:

أولاد ابن الخطيب رحمه الله ثلاثة: عبد اله ومحمد وعلي وكلهم حدث عن أبيه وعن ابن الجياب وعلي منهم هو صاحب السلطان المريني الملقب بالمستنصر.

[1]- لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، الجزء 02، تح: د.أحمد مختار العباس، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 205.

وحكى أنه حضر معه في بستان سبح فيه ماء المذاكرة الهكان وقد أبدى الأصيل شواهد الإصفرار وأزمع النهار لما قد الليل على الفرار فقال السمتنصر لما لأن جانبه وسالت بين سرحات البستان جداوله ومذانبه:

يافائس إني وأيهم الله نوشغف في كل ربع له معناه يسبيني

وقد أنسبت بقرب منك يا أملي ونظرة فيكم بالأنس تحييني

وأجابه علي ابن الخطيب بقوله (العذب المصيب):

لا أوحش الله ربعا أنت زائره يا بهجة الملك والدنيا مع الدين

يا أحمد الحمد أبقاك إلا له لنا فخل الملوك وسلطان السلاطين

وأما عبد الله فقد كتب بالعدوتين عن ملوك الحضرتين وأما محمد فقد نال حظا من التصوف و لم يكن له إلى خدمة الملوك تشوق.[1]

7- وصيته لأبناه:

ولا بد بوصية ابن الخطيب رحمه الله لأولاده المذكورين لما فيها من الحكم والوصايا النافعة لمن عمل بها وهي:

الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب إذا شم نجمه المثقوب ولا يبعثه الأجل المكتوب ولا يفجره الفراق المغنوب ملهم الهدى الذي تطمئن به القلوب وموضح السبيل المطلوب وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب لاسيما للولي المحبوب والولد المنسوب الفائل في كتابه المعجز

[1] شهاب الدين بن محمد المقري التلمساني ، أزهار الرياض في اخبار عياض الجزء 1 تحقيق مصطفى السقا، بيت المغرب، مطبعة فضالة ، صص320.319

الأسلوب "أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب"، "ووصى بها إبراهيم نبيه يعقوب"، فالصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرت على نوره جيوب الغيوب وأشرف من خلعت حلل المهابة والعصمة ولا مقتحمه لعيون ولا تعمه العيوب والرضا عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب والأمل المسلوب والاقتداء الموصل المرغوب والعز والأمن من اللغوب[1].

وبعد فإني لما علاني المشيب بغمته وقادني الكبر في رمته وادركت الشباب بعد أمته اسبقت. لما أضعت وندمت بعد الفطام على ما رضعت وتأكد وجوب نصحى لمن لزمني عليه وتعلق بسعي سعيه وأملت أن تتعدى إلى ثمرات استقامته وأنا رهين فوات وفي يرنخ أموات ويأمن العثور في الطريق التي اقتضى عثارى إن سلك وعسى ألا يكون ذلك على آثارى فقلت أخاطب الثلاثة الولد وثمرات الخلد بعد الضراعة لكن الله في توفيقهم وإيضاح طبيعتهم وجمع تفريقهم وأن يحين على فيهم بحسن الخلق والتلاقي من قبل التلف وأن يرزق خلقهم التمسك تهدي السلف فهو ولي ذلك والهادي إلى خبر المسالك.

اعلموا هذا كم من أنواعه يهدي الضلال وبرضاه ترفع الأغلال وبالتماس قربه يحصل الكمال إذا ذهب المال وأخلفت الآمال وتبرأت من يمينها الشمال أتى مودعكم وإن سالمني ارعى ومفارقكم وإن طال الهدى، وما عدا مما بدا فكيف وأدوات السفر تجمع ومنادى الرحيل يسمع ولا أقل للحبيب المودع من وصيته محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة تحقد في خنصر ونصيحته تكون نشيدة واع ومبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدي وتوضح لكم في الشفقة والحنو قصدى حسبها تضمن وعد الله من قبل وعدي فهي أريكم الذي لا يتغير وقفه ولا ينالكم المكروه ما رف عليكم سقفه وكأني شبابكم قد تسارع وبراحلكم قد أناخ وبنشاطكم قد كسل واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تنوع بأسل، لا بل "الشام" من كل حدب قد نسل والمعاد

[1]- شهاب الدين بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخيال عياض، ج 61، تح: مصطفى السقا، بيت المغرب، مطبعة فضالة، ص ص 319-320.

اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجم، والبهم آباء عسكر خجر وغدا شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فارغة والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها آخره، والحارم من لم يتعظ به في أمر، وقال بيدي لا بيد عمرو، فاقتنوها من وصية، ومرام في النصح قصيه وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدروا زادها إذا انتقلوا وحسبه وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملا، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا، ولا رضي الدنيا منزلا، ولا لطف لمن أصبح عن فئة الخير منعزلا ولتلقنوا تلقينا وتعلموا علما يقينا، أنكم لن تجدوا بعدان أنفرد بذنبي ويفترش التراب جنبي، ويسبح اسنكابي، وتهرول عن المصلى ركان[1].

أحرص مني على سعادة إليكم تجلب أو غاية كما بسببكم ترتاد وتطلب حتى لا يكون في الدين والدنيا أوتق منكم ظلا، ولا أشرق محلا ولا أغبط نهلا وعلا، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصبحوا إلى قولي الآذان، وتتلمحوا صبح نصحى فقد بان وسأعيد عليكم وصية لقمان:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: **(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)**، **(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)**.

وأعيد وصيته خليل الله وإسرائيله، حسبها نضمنه محكم تنزيله **(يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)** والدين الذي ارتضاه واصطفاه وأكمله ووفاه وقرره مصطفاه من قبل أن يتوفاه إذا أعمل فيه افتقاد فهو عمل واعتقاد وكلاهما مقرر، ومستمد من عقل أو نقل محرر، والعقل متقدم، وبناؤه مع رفض أخيه متهدم فالله واحد أحد فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزه عن المكان والزمان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خال الخلق وما يعلمون والذي لا يسأل عن شيء وهم يسألون الحي العليم المدبر القديم، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أرسل الرسل رحمة لتدعو العباد إلى النجاة من الشقاء، وتوجه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء،

[1]- أزهار الرياض، المصدر السابق، ص ص 320- 322.

مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء ولا يجوز على تواترها دعوى الانتقاء، ثم ختم ديوانهم ببني ملتنا المرعية للهمل الشاهدة على الملل فتلخصت الطاعة وتبينت، له إلا مرة المطاعة، و لم يبق بعده إلى ارتقاب الساعة، ثم إن الله قبضه إن كان شبرا، وترك دينه يضم من الأمة نشرا فمن اتبعه لحق به، ومن حاد عنه تورط في منتسبه، وكانت نجاته على قدر سببه[1].

روى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: **(تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تظلوا بعدي كتاب الله وسنتي فعظوا عليهما بالنواجد)**.

فاعلموا يا بني بوصيته من ناصح جاهد، ومضفق شفقة والد، واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه، وهو مراشد هديه في فوز واعيه، وصلوا السبب بسببه وآمنوا بكل ما جاء به مجملا أو مفصلا على حسبه، وأوجبوا التجلة لصحبه الذين اختارهم الله لصحبته واجعلوا محبكم إياهم من توابع محبه، واستهلوهم بالتوفير، وفضلها منهم أولى الفضل التسهير وتبرءوا من العصبية التي لم يبعكم إليها داع، ولا تدع التشاجر بينهم .ادق واع، فهو عنوان السداد، وعلامة سلامة الاعتقاد ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء المله، وأئمتها الجله، فهم صقلة نصولهم، وفروع ناشئة عن أصولهم ورغبتهم وورثة رسولهم، واعلموا أني فظعت في البحث زماني، وجعلت النظر شانى، منقذ برأني الله وأنشأني، مع نبل يعترف به الشاني، وإدراك يسلمه العقل الإنساني فلم أجد خابط ورق ولا مصبب عرق ولا نازع خطام، ولا متكلف فطام ولا مقتحم بحر طاهر، إلا وغايته التي يقصدها قد فضلتها الشريعة وسبقتها، وفرعت تثبيتها وارتقتها فعليكم بالتزام جادتها السابلة، ومصاحبة رفقتها الكافلة والاهتداء بأقمارها غير الآفلة والله يقول فهو أصدق القائلين: **(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)**[2]، شرائعه وراع الشكوك رائعة، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، وابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الأبدين، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ومتاع الحياة الدنيا

[1]- المصدر نفسه، ص ص 322- 324.

[2]سورة آل عمران ،الآية 85

أحس ما ورث الأولاد عن الوالدين اللهم قد بلغت فأتق خير الشاهدين، فاحذروا المعاطب التي توجه في الشفاء الخلود، وتستدعي نسوة الوجوه ونضج الجلود، واستعيذوا برضا الله من سخطه واربتوا بنفوسكم عن عظمه، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم واقنعوا منه بما تيسر، ولا تأسوا على ما فات وتعذر، فإنما هي لجنه، نسيخها الصباح، وصفقة يتعقبها الخسار والرياح ودونكم عقيدة الإيمان، فشدوا بالنواجد عليها، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يدفئوه عمل[1].

وكل ما سوى الراعي هل وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل، ويمسكوا بكتاب الله حفظا وتلاوة واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوه، وتفكروا في آياته ومعانيه وامتثلوا أوامره وانتهوا عن مناهيه، ولا تتأولوه ولا تغلوا فيه، واشربوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه وأكثروا من بواعث حبه، وصونوا شعائر الله صون المحترم واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلام حق لا ينخرم.

الله الله في الصلاة ذريعة النجلة، وخاصته الملكة، وحاقنة الدم، وغنى المستأجر المستخدم وأم العبادة وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر مهما عرض الشيطان عرضهما، ووطأ للنفس الأمارة سماءها فأرضهما، ولا تفضلوا عليها الأشغال الدينية فإن أوقاتها المعينة بالانقلاب تنسب والفلك يحق من أجلكم لا يحبس وإنا قرنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل والوظائف بعد أدائها لا تفوت وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت؟ واحكموا أوضاعها إذا أقمتموها وأتبعوها النوافل ما أطقتموها فبالإتقان تفاضلت الأعمال وبالمراعاة استحق الكمال ولا شكر مع الإهمال ولا ربح مع إضاعة رأس المال، وثابروا عليها في الجماعات وبيوت الطاعات، فهو أرفع الملام وأظهر لشرائع الإسلام، وأثر بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعة البعض للبعض.

[1]-المقري ، أزهر الرياض في أخبار عياض ، المصدر نفسه، ص ص 324- 325.

فالطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل، وشرط لمشروطها ، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور وذكر مجهول وغيب مجهول، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال، وكان في درجة الرجولة ذا انتقال[1].

والزكاة مفتاح السماحة فاسمحوا بتفرقتها للحاضر لإخراجها، واختيار عرضها ونتاجها، واستحبوا من الله أن تبخلوا عليه ببعض ما بدل، ولا تدرون أين تسلكون فوهب وأقدر، وأورد بفضله وأصدر ليركب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فاتبعوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نواله.

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله ، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام بين القيام، والاجتهاد وإيثار السهاد على المهاء،

والحج مع الاستطاعة الركن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسنه.

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله إن كانت لكم قوة عليه، وغنى لديه فكونوا ممن يسمع يغيره وبطبعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه.

واعلموا أن بالعلم نستكمل وظائف هذه الألعاب، وتجلى محاستها من بعد الانقلاب فعليكم بالعلم النافع، دليلا بين يدي الشافع، فالعلم مفتاح هذا الباب والموصل إلى الكتاب.

وأمروا بالمعروف أمرا رفيقا، وأنهوا عن المنكر نهي حري بالاعتدال حقيقا واغبطوا من كلا من سنة الغفلات مفيقا، واجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا سلكوا منه طريقا وأطيعوا أمر من ولاة الله من أموركم أمرا، ولا تقربوا من الفتنة جمرا، ولا تدخلوا في الخلاف زيدا ولا عمرا[2].

[1]- المقري ،أزهر الرياض في اخبار عياض، المصدر نفسه، ص ص 325-327.

[2]- المصدر نفسه، ص ص 327- 330.

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين وأهم ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين وأكرم منسوب إلى مذهبه ومن أكثر من شيء عرف به وإياكم والكذب فهو العورة التي لا توارى والسوءة.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لهو، وفي وجه الديانة كلهم ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة فالصيانة ولا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة ولا توجدوا للعذر قبولا ولا تقدروا عليه طبعا محيولا، وأوفوا بالعهد أي العهد كان مسؤولا، ولا تستأثروا بكنز ولا خزن ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حزن، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن، والله أن نعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام واعلموا أن الإنسان في فسحة ممتدة وسبيل الله غير منهدة.

في اجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه، ولو لم تتلقى نور الله الذي لم يهد شعاعه فالحلال لم يذق. عن الشهوات أنواعه ولا عدم إقناعه ومن عليت عليه غرائز جهله فلينظر هل يجب أن يرمى بأهله؟

الخمر أم الكبائر ومفتاح الجرائم والجرائر، واللهو لم يجعله الله في الحياة شرطا والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوغ وأعطى وقد نكزها في الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد ولا تقربوا الربا فإنه من هنا هي الدين .

وإياكم والظلم فالظالم ممقوت بكل لسان، مجاهر لله بصريح العصيان والظلم ظلمات يوم القيامة ، والنميمة فساد وشتات ، وإياكم والغيبة فباب الخير عنها مسدود، وإياكم وما يعتذر منه فمواقف الخزي لا تستقال عثراتها وأفشوا السلام في الطرق والجماعات وتاجروا مع الله بالصداقة يربحكم في البضاعات وعولوا عليه وحده في الشرائد واذكروا المساكين إذا نصبتم وتقربوا إليه بالسبس من ماله وارعوا حقوق الجار واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار[1].

[1]- المقري ، أزهر الرياض في اخبار عياض ، المصدر السابق، ص ص 330- 332.

واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، وتفسد السر والجهر والرشا وإنها تحط الأقدار وتستدعي المذلة والصغار.

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها وتجارتي التي لربحكم أدرتها فتلقوها بالقبول لنصحها والاهتداء بضوء صحبها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها واستخشيتم من دروعها، اقتنبتم من المناقب الفاخرة وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة وبقدر ما أضعتم من لآليها النفسية القيم استكثرتم من بواعث الندم ومهما شئمتم إبطالها فاستغرزتم مقالتها فاعلموا أن تقوى الله فذالك الحساب وضابط هذا الباب، كلن الله خليفتي عليكم في كل حال فالدنيا مناخ ارتحال وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء دار البقاء جعلها الله من وراء خطة النجاة ونفق بضائعها المزجاه والسلام عليكم من حبيبكم المودع والله بل لأمة، حيث شاء من شمل متصدع والدكم محمد بن عبد الله أبي الخطيب ورحمة الله وبركاته[1].

08/نكبة وفاة ابن الخطيب:

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين وسبعمائة واستقل سلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبد وسليمان بن داود رديف له،وقد كان الشرط وقع بينه وبين سلطان عليه الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نهي إليه عنه أن كان يغري السلطان عبد العزيز الملك الأندلس، لما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير ابا بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار، آمن معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفا على نفسه، فلما استولى السلطان على البلد الجديد أقام أياما ثم أعزله سليمان بن داود بالقبض عليه، وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب، لما كان سليمان قد تابع السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندس، حتى أعاده تالله إلى مكة، فلما استقر له سلطانه أجاز إليه سليمان سفيرا عن عمر بن عبد الله ومعتصب عهده من السلطان فصده ابن الخطيب عن ذلك، بأن تلك الرياسة إنما هي

[1]- المقري ، أزهر الرياض في اخبار عياض ، المصدر السابق ، ص ص 332- 336.

لأعياض الملك من آل عبد الحق، لأنهم بمحل إمارته من جيل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفس كل منهما لصاحبه بما يحفظه لما كمن في صدورهما[1]، ولك يكن الأمر يتسبب للسلطان الجديد حتى أمر بالقبض على ابن الخطيب تنفيذا لما تم بينه وبين ابن الأحمر من اتفاق وكان سليمان بن داوود وزير ابن الأحمر وخصم ابن الخطيب اللدود، لإيألوا جهدا في الإيقاع به، وكانت نفس ابن الأحمر متغيرة على ابن الخطيب لما نهى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز المريني على محاربته واشترك في السمعي للقضاء على ابن الخطيب نفر عقيم منهم صديقه القديم أبو الحسن النباهي قاضي عرناطة وصاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس وتلميذه ابن زمرك الشاعر وهو الذي ندبوه للذهاب إلى فاس للعمل على الإجهاز على ابن الخطيب[2]، ليعمل على تحقيق هذه الرغبة، وبالتعاون مع حكومة فاس ووجهت إلى ابن الخطيب التهم القديمة، التي وجهت إليه في غرناطة وصاغها القاضي أبو الحسن في قرار اتهامه، ورأى السلطان أحمد أن يعقد مجلس خاص، من رجال الدولة وأهل الشورى، واستدعى ابن الخطيب إليه بمناقشته، ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه، وأخصها تهمة الإلحاد والزندقة، استنادا إلى ورد في بعض كتاباته، ولاسيما بعض آراء وعبارات وردت في كتابه "روضة التعريف بالجب الشريف" وعزز ابن الخطيب وعذب أمام الملأ[3]، فكان مجلس صوريا طبيعة الحال، فإن نتيجة المحاكمة كانت مقررة ومنفقا عليها في من غرناطة وفاس.

لقد أوذى ابن الخطيب أمام شهود هذه المؤامرة، وأفتى الفقهاء المتعصبون بإعدامه شرعا فأعيد إلى سجنه[4]، ودس عليه سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته تقبله، فطرقوا السجن

---

[1]- عبد الرحمان ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ أو الخبر في تاريخ تالعرب والبربر ومن عناصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 7، تح: سهيل نكار، دار الفكر، 1421ه/2000م، ط مستكملة، ص ص 452-453.

[2]- حسين مؤنس، تاريخ الفكر الأندلسي، ج 1، ترجمة: أنجلل جنثاليث بالنثيا، مكتبة الثقافة الدينية، 526 شارع بور سعيد، الطبعة الأولى، 1928، ص 256.

[3]- لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ، ص 42.

[4]- لسان الدين ابن الخطيب السلماني، الإشارة إلى أدب الوزارة، ج 1، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية 526، ط 1، 1424ه-2004م، ص 26.

ليلا ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقا في محبسه، وأخرجوا شلوه في الغد فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شأانه قبره طريحا وقد جمعت له أعواد وأضرمت عليه نارا، فاحترق شعره وأسوة بشره، وأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من عاته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته[1].

ووقعت هذه المسألة الأليمة في ربيع الأول أو ربيع الثاني سنة 776ه (أغسطس أو سبتمبر 1372م).

وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير، والمفكر العبقري، ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد السياسية + الوضعية[2]، وكان عقى الله عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبته الموت، فيتجيش هو اتقه بالشعر يبكي نسفه ومما قال في ذلك:[3]

وقال الجاحظ ابن حجر في أنباء العمر:

وقل للعداة مضى ابن الخطيب وفات فسبحان من لا يفوت

فمن كان سيمت منكم به فقل يمت اليوم من لا يموت[4]

وهنا يقول المقري زرت قبره مرارا رحمة الله تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي تعال له باب الشريعة وهو يسمى الآن باب المحروق وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض ب ينزل إليه بانحدار كثير وينعم الجل من عوام فاس أن الباب المذكور إنما سمي بباب المحروق لأجل

[1]- عبد الرحمان ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، المصدر السابق، ص 453.

[2]- الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ص 43.

[3]- المصدر السابق، ص ص 453-454.

[4]- أحمد المقري المغربي المالكي الأشعري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 3، ص 59.

ما وقع من حرق لسان الدين به حين أخرجه بعض أعدائه من حفرته كما مر وليس كذلك وإنما سمي باب المحروق من دولة الموحدين قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه سبب ثائر ثار على الدولة فأمسك وأحرق في ذلك المحل والله غالب على أمره وحصل له من الخشوع والحزن عند زيارة قبره رحمه الله تعالى ما لا مزيد عليه جعل الله له تلك المحن كفارة وطهره فإنه كان آية الله علما وجلالة وحكمة وشهرة، وقد تذكرت عند كتب هذا المحل رسالة كتبها بعض أئمة المغرب في عزاء الوزير الشهير أبي جعفر بن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى إلى بينه وهي مما يصلح أن يوصف بمثلها لسان الدين رحمه الله تعالى وفيها عزاء بمن مضى وغصها غراء كواكب الهدى في بدركم الذي تحيفه الردى وفجع به الفضل والندى مثل للشهب أن تنكدر على فراقه والصبح لن يخبو نور إشراقه وللريح أن يمزق صدارا وللأهلة أن لا تعرف إبدارا ولليل أن يشتمل خصيصته الحزن وللسماء أن تبكيه بأدمع المزن وللرعد أن ينتحب لوفاته وللبرق أن يحكي برجفاته أفئدة عفاته وللثرايا أن ينفصم سوارها وللشمس أن تنكسف أنوارها وللثر أن تنثر كواكبها وللجوزاء أن يفيض دمعا ىنهرها وللغميصاء أن يطرد بكاؤها وسهوها وللروض أن يفارق أمراعه فلا ورق أن يهتف بماراعه وللغصون أن تنهمر لهتفه وتقصف أسف على حتفه[1].

وقد أقامت عليه الحكومة المغربية ضريحا صغيرا، ذا واجهة فنية جميلة، وكتب أعلاه وبالخط المغربي (هذا ضريح العلامة لسان الدين ابن الخطيب)[2].

أ/ تراث ابن الخطيب: ترك لنا ابن الخطيب تراثا حافلا منوعا، ما بين تاريخ وأدب وسياسة فتصوف، وطب، وشعر، ونثر وقد بلغت مؤلفاته زهاء 60 مؤلفا، وقد انتهى إلينا في هذا التراث أكثره ولاسيما المجموعة التاريخية والأدبية التي هي في الواقع لب تراث ابن الخطيب، والتي تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس والمغرب في أواسط القرن 08ه.

[1]- المقري ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المصدر نفسه،ص 84.

[2]- لسان الدين ،الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ص 43.

والظاهر أن مؤلفات ابن الخطيب التي لم تصل إلينا، قد هلك معظمها في محنة إحراق كتبه التي وقعت في غرناطة في سنة 773ه، وهي من كتب الطب والتصوف والموسيقى، وأن بمعظم كتبه التي نجت من تلك المحنة، قد وصل إلينا عن طريق المغرب، والواقع أن ابن الخطيب قد وضع كثيرا من كتبه أثناء إقامته منفيا بالمغرب، خلال فترتين أولهما ما بين سنتي 761 وأواسط سنة 763ه، والثانية منذ أوائل سنة 773 ومصرعه في أوائل سنة 776ه.

فقد ذكر لنا ابن الخطيب ثبت مؤلفاته خلال ترجمته لنفسه، في آخر كتاب الإحاطة، ولكن هذا الثبت لا يتضمن كل كتبه، لأنه انتهى من كتابة الإحاطة منقحة، حوالي سنة 773ه، وكتب مزيدا من الكتب والرسائل بعد هذا التاريخ.

ب/ المجموعة التاريخية:

1/ كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة: وقد تحدثنا فيما تقدم عن مادته وتاريخ كتابته واستعرضنا ما يوجد من مخطوطاته في مختلف المكتبات.

2/ التاريخ المحلى في مساجة القدح المحلى: يحتوي على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ إنشائها على أبدي بن نصر، أما "القدح المحلى" فهو من تأليف ابن سعيد الأندلسي (أبي الحسن على بن موسى سنة 666ه أو 672ه، وفقا لابن الخطيب) وهو يفهم تراجم الأدباء الأندلسيين في القرن 7ه[1].

3/ الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: وقول ابن الخطيب في ديباجته أنه جمع فيه جملة وافرة، وكتيبة ظافرة ممن لقيناه ببلدنا الذي طويناه جديد العمر في ظله، وفيه يترجم بن الخطيب لطائفة من الخطباء والشعراء والمقربين والفقهاء والكتاب المعاصرين له وتوجد به عدة نسخ محطوطة بالمغرب.

[1]- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،المصدر السابق، ج 1، ص ص 53-54.3.

4/ اللمحة البدرية في الدولة النصرية: وهو مختصر لتاريخ بني نصر ملوك غرناطة حتى فاتحة سنة 765ه، وهو تاريخ الفراغ من تأليفه[1] 765ه، وفق ما ذكره في خاتمته وكان قد بدأه لمدينة سلا وانتهى منه في غرناطة[2].

5/ رقم الحلل في عظم الدول: هو عبارة عن تاريخ منظوم، للدول الإسلامية، الخلفاء الأوائل وبني العباس، وبني الأغلب والعبيدين، وبني أمية بالأندلس، والطوائ والمرابطين والموحدين، وبني مرين وبني نصر، وشرح هذه القصائد نثرا بقلم ابن الخطيب نفسه.

6/ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: هذا الكتاب من أهم كتب ابن الخطيب وهو أهم كتاب بعد "الإحاطة" ووجه أهميته النفاضة هو أنه فضلا عن ضخامة حجمه، يعتبر بالنسبة لابن اخطيب مذكراته الشخصية عن فترة من أتهم فترات حياته، هي الفترة التي اقضاها في عزلته في سلا من رجب سنة 761ه ثم بعد تذلك منذ عودته إلى الأندلس وتولى الوزارة للمرة الثانية[3]، اختيار ابن الخطيب لعنوان كتابة الألفاظ لها دلالات عميقة نفاضة اغتراب كل لفظة تعبر عن مضمون من مضامين الكتاب[4].

7/ أعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: وهو آخر كتاب ألفه ابن الخطيب قبل مصرعه، وقد تركه ناقصا و لم يتيح له القدر إكماله، وقد ألفه للوزير أبي بكر بن غازي عقب وفاة السلطان عبد العزيز المريني، ويوجد من هذا الكتاب عدة نسخ مخطوطة منها بالمغرب والرباط والقرويين بفاس ومدريد.

8/ طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر: هو تاريخ آخر للدولة النصرية[5].

---

[1]- لسان الدين ابن الخطيب ،الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ص ص 54-55.

[2]- لسان الدين ابن الخطيب، التاريخي والأدبي في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، تح: محمد سيف الإسلام .....، دار الأمان للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، 1924، ص 32.

[3]- المصدر السابق،ص ص 55-56.

[4]- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، ج 3، تح: السعدية فاغية، 713-776ه/1313-1374م، دار النشر المغربية، دار بيضاء، د ط، ص 10.

[5]- لسان الدين ابن الخطيب ،الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ص ص 57-59.

9/ الإكليل الزاهر فيمن فصل عدد نظم التاج من الجواهر وفيه يتناول ابن الخطيب تراجم بعض الأعلام معاصر به بأسلوب مسجع وهو بمثابة تكملة لكتاب "التاج المحلى"[1]، وهو تتمة لكتاب التاج المحلى كتبه السلطان أبي الحجاج يوسف النصري وبأسلوب سجعي في ترجمة بعض أعلام معاصريه وهو غير مطبوع[2].

10/ عائد الصلة: كتبه ابن الخطيب ليكون ذيلا لكتاب "صلة الصلة" لابن الزبير المتوفي سنة 708ه، وجمع فيه طائفة من تراجم الأعلام اللاحقين لمن ترجمهم ابن الزبير.

11/ الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة: أشار ابن الخطيب إلى غرناطة.

12/ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: هو أهم كتاب لابن الخطيب بعد الإحاطة ويفصل ابن الخطيب في ديباجته محتوياته على النحو التالي، تمهيدات من أوائل المصنفات وفي هذا الباب يختار ابن الخطيب نبذا من مقدمات كتبه ورسائله السابقة مثل بستان القول، وجيش التوشيح والإكليل الزاهر والإحاطة وكتاب الطب ونقضه التعريف بالجب الشريف ثم يلي ذلك أبواب التحميدات والفتوحات الواقعة والمرافعات التابعة وتوجد من هذا المؤلف الضخم نسخ مخطوطة عديدة.

13/ كناسة المكان بعد انتقال السكان: وضعه ابن الخطيب في بداية إقامته الأولى سبلا منفيا بالمغرب وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل السلطانية كتبها ابن الخطيب في بداية حياته الوزارية عن السلطان أبي الحجاج يوسف إلى السلطان أبي عنان المريني.

14/ معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار: أو في ذكر المعاهد والآثار وهو وصف نثري مسجع، لمدن وبلاد مملكة غرناطة ولطائفة من المدن المغربية ويتألف من فصلين أو مجلسين كتبا على طريقة المحاورة.

---

[1]- – لسان الدين ابن الخطيب ،الإحاطة في أخبار غرناطة ،المصدر نفسه، ص ص 58-62.

[2]- البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين آثار المصنفين، طبع بعناية، وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، استانبول، 1955، ص 167.

15/ خطوة الطيف في رحلة الشتاء والصيف: رسالة كتبها ابن الخطيب في سنة 748 يصف فيها رحلة قام بها السلطان أبو الحجاج يوسف في شهر المحرم، فدار فيها عدة مدن مملكة غرناطة، وقد كتبت بأسلوب مسجع جزل[1].

16/ روضة التعريف بالحب الشريف أو كتاب المحبة: هذا الكتاب من أهم مؤلفات ابن الخطيب وهو مؤلف من نوع خاص، ويعتبر بفكرته وأسلوبه من أقوى نفثات ابن الخطيب النثرية وأبلغها وهو يدل فوق ذلك على تضلع ابن الخطيب في التصوف ودراسة مختلف المدارس الصوفية[2]، وهو من بين الكتب التي جلبت الأذى لابن الخطيب إن يعرف المؤرخون إلى هذا الكتاب أنه كان وثيقة اتهام بالإلحاد والزندقة ضد ابن الخطيب[3].

17/ استنزال اللطف الموجود في سير الوجود: هي رسالة صغيرة في التصوف و لم نعثر على نسخ منها في مختلف المكتبات التي سبق ذكرها.

18/ رسالة في السياسة: كتبها ابن الخطيب على نمط المقامات وأملاها حسبما يقول لنا في ليلة واحدة، وجعلها في صورة قصة بطلها الخليفة الرشيد.

19/ مثلى الطريقة في نصر الوثيقة: وهي رسالة في التوثيق فتضمن مناقشات جرت بين ابن الخطيب وبين أهل الطريقة نظما ونثرا.

20/ رسالة في الموسيقى: وضع ابن الخطيب رسالة في الموسيقى وفنونها لم تصل إلينا ولكنه ذكرها في ثبت آثاره في ترجمته، وذكرها معاصره الأمير إسماعيل بن الأحمر ضمن مؤلفاته.

21/ مفاخرة بين مالقة وسيلا: هي رسالة مسجعة في المقارنة بين هذين البلدين وتوجد منها نسخة بالإسكوريال ضمن المخطط رقم 554 الغزيري.

---

[1]- – لسان الدين ابن الخطيب ،الإحاطة في أخبار غرناطة ،المصدر السابق، ص ص 58-62.

[2]- المصدر نفسه ص 62.

[3]- لسان الدين ،التاريخي والأدبي في الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ص 29.

22/ بستان الدول: وهو كتاب السياسة والقضاء وللحرب، وأهل المهن والحرف، وطوائف الشعب، تخصص لكل منها شجوة وهو كتاب لم يكمل و لم يصل إلينا ويقول لنا ابن الخطيب في الإحاطة أنه كتب منه ثلاثين سقرا عاقته الحوادث عن إتمامه.

23/ تافه من جم ونقطة من يم: وهو مجموعة اختارها ابن الخطيب من رسائل استاذه ابن الجباب ونثره و لم يصل هذا المجمع إلينا[1].

آثار ابن الخطيب المنظومة:

24/ الديوان المسمى الصيب والجهام والماضي والكهام: هو ديوان ابن الخطيب و لم نصل إلينا من هذا الديوان نسخة كاملة، وهي التي يقول ابن الخطيب في ترجمته لنفسه أنها نفع في سفرين.

25/ الحلل المرموقة في اللمع المنظومة: وهي أرجوزة من ألف بيت في أصول الفقه، ذكرها ابن الخطيب ضمن مؤلفاته التي ذكرها في نفاضة الحراب وهي تلخيص كتاب أصول لأبي إسحاق الشيرازي وهي عبارة عن شرح للأرجوزة المتقدمة من التي وضعها ابن الخطيب ويقع الشرح المذكور في 76 لوحة من القطع الصغيرة.

26/ السحر والشعر: هذا الكتاب ليس من تأليفه ولكنه من تصنيفه وهو عبارة عن مجموعة شعرية اختارها، وقد ذكر ابن الخطيب في مقدمته أنه لمناسبة ترعرع ولده عبد الله، قد اغتنم واختار له طائفة من القصائد ىتتعلق بالوصايا والميادئ.

27/ جيش التوشيح: جمع ابن الخطيب وهو من أئمة الموشحات الأندلسية مجموعة مختارة من موشحات أئمة التوشيح بالأندلس مثل ابن بقى، وابن اللبانة والأعمى التطيلي وابن شرف وغيرهم في كتاب سماه بالاسم المتقدم.

جمع ابن الخطيب مجموعة من شعر أستاذه الرئيس أبي الحسن بن الجياب على نحوها فعل نحو منثوره فجمع كذلك مجموعة أخرى ايام مقامه لغة في سنة 744ه، من شعر أستاذه أبي جعفر بن صفوان الملقي أسماها "الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة.

[1]-لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ص ص 63-64.

وقد ذكرنا ابن الخطيب ضمن ثبت مؤلفاته التي وضعها خلال إقامته بسلا، أنه وضع مؤلفا شعريا في نحو ستمائة بيت، عنوانها"تخصيص الرياسة لتلخيص السياسة"[1].

الآثار العلمية:

28/ عمل من طب لمن حب: وهو مؤلف لفظي ضخم، يتناول فيه ابن الخطيب مختلف الأمراض ويذكر لنا أسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه نظام العزاء الذي يناسبه، ويتحدث فيه عن مختلف أعضاء الجسم، وطرق العناية بها وقد وضع ابن الخطيب في الكتاب في سنة 761ه أثناء إقامته الأولى بفاس، برسم حاميه وولى نعمته السلطان أبي سالم المريني.

29/ أرجوزة في الطب: ذكرها ابن الخطيب ضمن مؤلفاته وضعها أثناء إقامته سلا وذكراتها تقع في نحو ألف وستمائة بيت، وأنها تتضمن ذكر جميع الأمراض الكلية والجزئية بيد أننا لم نعثر على أية نسخة مخطوطة من هذه الأرجوزة.

30/ رجز في الأغذية أو أرجوزة الأغذية: هي تقع في نحو ألف ومائتي بيت، وموضوعها جسمي يوضحه المؤلف هو أنها تتضمن ذكر الأغذية مرتبة على حروف المعجم وطبائعها ومنافعها ومضارها، وإصلاح خللها.

31/ الوصول لحفظ الصحة في الفصول: يوجد من هذا الكتاب ثلاثة نسخ مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط تقع أوله في مجلد ضخم مكون من 49 لوحة كبيرة مزدوجة[2]، وهو كتاب يبحث في الحمية الغذائية[3].

32/ كتاب في علاج السموم: اسمه الأرجوزة المعلومة، وذلك مقابل الأرجوزة المجهولة التي وضعها ابن طفيل، وقد ذكر ابن الخطيب هذا الكتاب في نفاضة الجراب ضمن الكتب التي ألفها من خلال إقامته سيلا، بيد أن هذه الأرجوزة لم تصل إلينا.

---

[1]- لسان الدين ،الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ص ص 64-65.

[2]- المصدر السابق ، ص ص 66-68.

[3]- ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج 1، ص 53.

ولابن الخطيب عدة رسائل طبية وصحية أخرى منها المسائل الطبية[1]، الموسيقي في صناعة الطب[2]، رسالة تكوين الجنين[3]، ثم كتابه "البيطرة" وكتاب اليزرة. رسالة أخرى من نوع خاص "مقنعة السائل عن المرض الهائل" وهي رسالة كتبها عن الطاعون الجارف الذي دهم بالأندلس وسائر العالم الإسلامي في سنة 749ه (1328م) وفيها ظروف ظهوره وروعة انتشاره، وأعراضه الأولى، وسبل التحوط منه[4].

ولد ابن الخطيب بمدينة لوشة في الخامس والعشرون في رجب سنة 713ه و16 نوفمبر سنة 1913م[5]، وهي مدينة أندلسية تقع غربي غرناطة ما تقارب خمس كيلومترات غرناطة في ذلك الوقت أي في عصر بني الأحمر من أعظم المدن الأندلسية إذا بلغت غزوتها وظهر كتاب المفكرين والأدباء منهم والده عبد الله الذي تعمل في ديوان الإنشاء مع ابن الجياب وكان ابن الخطيب قد تربى في أحضان أسرته التي عرفت بالأصالة في مدينة لوشة ثم استقل إلى العاصمة غرناطة فنشأ فيها وتلقى بها دراسته منصرفا إلى العلم منذ نعومة أظافره[6].

ويحدثنا ابن الخطيب بأن بيتهم كان سمي ببني الوزير ثم سموا ببني الخطيب وسبب هذه التسمية يرجع إلى عهد جده سعيد وهو أول من استوطن من الأسرة مدينة لوشة وكان عن الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيلية مارا بلوشة ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب وأورث هذا اللقب لنية فعرفوا ببني الخطيب من ذلك الحين كما يحدثنا عن والده عبد الله وكان من أكابر العلماء والخاصة ويترجمه لنا في الإحاطة وقد ولد سنة 672ه واستقر حينا في غرناطة ثم عاد إلى لوشة مقر بيتهم الأول القديم وبعدها إلى غرناطة مرة أخرى ليلتحق بخدمة السلطان أبي الوليد

---

[1]- لسان الدين ،الإحاطة في أخبار غرناطة،المصدر السابق، ص 66.

[2]- المقري، نفح الطيب، ج 7، ص 98.

[3]- المصدر نفسه، ص 101.

[4]- المصدر السابق، ص 68.

[5]-المصدر نفسه ، ج 1، ص 20.

[6]- المصدر نفسه، ج1،ص 21.

إسماعيل وهو الذي حلمه على عرس غرناطة في سنة (713ه/1914م) خدم أعظم سلاطين غرناطة وقد ولى العرش (733ه/1332م) وخدم عبد الله في ديوان الإنشاء مع الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبي الحسن بن الجياب[1]

[1]- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص 20.

الفصل الثاني

المدن الأندلسية التي تناولها ابن الخطيب بالوصف

" ابن الخطيب وُزِرَ للسلطان يوسف الأول النصري (733-755هـ) (1333-1354م) ، ثم لإبنه بعده الغني بالله محمد الخامس (755هـ 760هـ) (1304-1359م) ثم للمرة الثانية عام (722- 793هـ) (1361- 1392م) وطبيعة المنصب تقتضي تفقد الوزير هناك للبلاد والثغور الأندلسية ، للوقوف على أحوالها وحركة دولاب العمل فيها ، ثم توجيه العمال وإرشادهم ، ومن ثم تحرير التقارير عن زيارته ، كما أنه رافق سلطانه أبا الحاج يوسف الأول في زيارته التاريخية التي بدأها في غرناطة (17 محرم 748هـ -1347) صحبة حاشيته ، وقد أفرد ابن الخطيب رسالة خاصة بهذا سمّاها " خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف " ، جاء فيها أنّ الرّكب الملكي بعد أن غادر العاصمة وصل إلى مدينة واد **آش** ، وهناك اِستقبلهم الأهالي اِستقبالاً رائعاً ، ثم اتجهت القافلة شرقاً مارةً ببعض المدن والحصون الهامة ، مثل : بسطة وبرشانة ، وهنا صوّر ابن الخطيب الحالة التي يعيشها سكان هذه المدن ، نتيجة كل من الغارات النصرانية ، والسيول الموسمية ، ثم زار الركب مدينة " بيرة " أقصى الثغور على الحدود الشرقية ، وقد ذكر لنا ابن الخطيب ما كان يشعر به سكان هذا الثغر من القلق والخوف من جرّاء هجوم الإسبان المفاجئ بين الحين والآخر ، كما صوّر لنا موقع وعورة المدينة [1] . وصعوبة مسالكها ؛ حيث اِضطروا للإسترشاد بدليل ماهر يكشف لهم طريقهم في الجبال بين الروابي والوهاد .

وأخيراً يعود الموكب إلى **غرناطة** راجعاً من طريق آخر ماراً بغر المرية ، حيث استعرض السلطان قطع الأسطول الحربي ، واستقبل رجالهم في زيّهم الرائع الأنيق .

كما زار الموكب بعد المرية بعض المدن العامة ، بجانة وبرشلونة ، وقنياية ، وينتهي المطاف بمدينة واد آش مرة أخرى ، ومنها إلى العاصمة " غرناطة " ، وبذلك أتيحت فرصة رسمية هامّة للوزير ابن الخطيب ؛ حيث وقف على أحوال هذه المدن الأندلسية خلال هذه الرحلة ، وكون

[1] ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، تح: محمد كحال سبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1423هـ -2002م ، ص 58

لنفسه ، ودوّن في مذكراته فكرة عميقة وموضوعية عن كل مدينة زارها الرّكب السلطاني التاريخي [1]

1_ولاية غرناطة :

"وتتوسط المملكة ممتدة جنوباً حتى البحر ، وأهم مدنها العاصمة نفسها ، ووادي آش أو وادي ياش ، والحامة ، ولوسنة ، وأرجية ، وأشكر ، وحصن اللوز ، وبسطة ، وشلوبانية ، وتخترق المملكة عدة أنهار أهمها نهر شنيل ، ونهر المنصورة ، كما تخترقها سلسلة جبال سيرانيفادا ، وهضاب البشرات ، وتنتشر سهولها الخضراء المترامية لأطراف ، والتي تمد المنطقة بنزرة زراعية هامة ، زيادة على ما تجود به المناطق الجبلية من معادن نفيسة كالحديد والرصاص والنحاس [2].

مدينة بالأندلس بينها وبين وادي آش أربعون ميلاً وهي من مدن إلبيرة ، وهي محدثة من أيام الثوار بالأندلس ، وإنما كانت المدينة المقصودة إلبيرة فحلت ، وانتقلت أهلها إلى غرناطة ، ومدنها و حصّنت أسوارها ، وبنى قصبتها حبوس الصنهاجي ثم خلفه ابنه باد بن حبوس ، فكملت في أيامه وعمرت إلى الآن ، ويشقها نهر يسمى حَدَّرَة ، وبينها وبين إلبيرة ستة أميال ، وهي من الخصاب الحصينة [3]

يقال غرناطة ، ويقال اغرناطة ، وكلاهما أعجمي ، وهي مدينة كورة إلبيرة فبينهما فرسخان ، وثلث فرسخ ، وإلبيرة من أعظم كور الأندلس ، ومتوسطة ، ما اشتمل عليه الفتح من البلاد ، وتسمى في تاريخ الأمم السالفة من الروم ، سنام الأندلس وتدعى في القديم بقسطيلية ، وكان لها من الشهرة والعمارة ، ولأهلها من الثروة والعدة ، وبها من الفقهاء والعلماء ما هو

[1] –ابن الخطيب،معيار الاخيار في ذكر المعاهد والديار،المصدر السابق ،ص59

[2] الوزير ابن الخطيب ،كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، تح: محمد كمال شبانة ، وحسن محمود ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ص 17.

[3] – محمد بن عبد المنعم الحميري ،الروض المعاطر في خبرالاقطار،،تح:الدكتور حسان عباس،مكتبة لبنان،ط1،1975،ط21984م،بيروت،ص45

مشهور ، قال أبو مروان ابن حيان : كان يجتمع بباب المسجد الجامع من إلبيرة خمسون حكمة كلها من فضة لكثرة الأشراف بها ، ويدل على ذلك آثارها الخالدة ، وأعلامها الماثلة كطلل مسجدها الجامع الذي تحمل اِستطالة البلى كسلت عن طمس معالمه أكف الردى إلى بلوغ ما فسح له من المدى .

بناه الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، أمير المؤمنين الخليفة بقرطبة –رحمه الله – على تأسيس حنش بن عبد الله الصنعاني الشافعي –رحمه الله – وعلى محرابه لهذا الوقت ، ولم تزل الأيام تحذف ساكنها ، والعناء يتبوأ مساكنها ، والفتن الإسلامية تجوس أماكنها ، حتى شملها الخراب ، وتقسم قاطنها الإغتراب ، وكل الذي فوق التراب تراب ، اِنتقل أهلها مدة أيام ، الفتنة البربرية سنة أربعمائة من الهجرة ، فيما بعدها و لجأوا إل مدينة غرناطة ، فصارت حاضرة الصقع ، وأم المصر ، وبيضة ذلك الحق[1]

لحصانة وصفها ، وطيب هوائها ، ودرور مائها ، ووفور مدتها ، فأمن فيها الخائف ، ونظم النشر ، ورسخت الأقدام ، وتأثل المصر ، وهلم جراً ، فهي الأندلس قطب بلاد الأندلس ، ودار الملك ، وقرى الإمارة ، أبقاها الله متبوأ الكلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بقدرته .

من كتاب إلبيرة ، قال : بعد ذكر إلبيرة ، وقد خلفها بعد ذلك كله غرناطة ، من أعظم مدنها وأقدمها ، عندما إنقلبت العمارة إليها من إلبيرة ، ودارت أفلاك البلاد الأندلسية ، فهي في وقتنا هذا قاعدة الدنيا ، وقرارة العليا ، وحاضرة السلطان ، وقبّة العدل والإحسان ، لا يعدلها في داخلها ولا خارجها بلد من البلدان ، ولا يضاهيها في إتساع عمارتها ، وطيب قرارتها ، وطنٌّ ، أدام الله العزّ فيها للمسلمين والإسلام ، وحرسها ومن اِشتملت عليه من خلفائه ، وأنصار لوائه ، بعينه التي لا تنام ، وركنه الذي لا يرام .

[1] ابن الخطيب ،الإحاطة في اخبار غرناطة، ج1،ص 14

وهذه المدينة من معمور الإقليم الخامس ، يبتدئ من الشرف ، من بلاد ياجوج ومأجوج ، ثم يمر على شمال خرسان ، ويمر على السواحل الشام ، مما يلي الشمال ، ويمر على بلاد الأندلس ، قرطبة وإشبيلية وما ولاها إلى البحر المحيط الغربي ، وقال صاعد بن أحمد في الطبقات ، إن معظم الأندلس في الإقليم الخامس ، وطائفة منها في الإقليم الرابع ، كمدينة إشبيلية ، ومالقة ، وغرناطة ، والمرية ، ومرسية [1] .

وذكر العلماء بصناعة الأحكام ، أن طالعها الذي اختطت به السرطان وتحولها لأجل ذلك ، مزايا ، وحظوظاً من السعادة ، اِقتضاها تسيير أحكام القرانات الإنتقالية على عهد تأليف هذا الموضع .

وطولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق ، وهي مساوية في الطول بأمر يسير لقرطبة ، وميورقة ، والمربة ، وتقرب في العرض من إشبيلية ، والمرية ، وشاطبة ، وطرطوشة ، وسردانية ، وأنطاكية ، والرقة ، كل ذلك بأقل من درجة ، فهي شامية في أكثر أحوالها ، قريبة من الإعتدال ، وبينها وبين قرطبة أعادها الله تعالى تسعون ميلاً ، وهي منها بين شرق وقبلة بحر الشام ، بحول وبحاجز بين الأندلس وبلاد العدوة ، وبين غرب وقبلة على أربعة يرد ، والجبال بين شرق وقبلة ، والبراجلات بين شرق جوف والكنبانية بين غرب وقبلة ، وبين جوف وغرب ، فهي المكان بجوار الساحل ممارة بالبواكر الساحلية ، طيبة البحار وركاب ، لجهاد البحر ، ولمكان اِستقبال الجبال المقصودة ، بالفواكه المتأخرة اللّحاق معللّة بالمدخرات [2] .

ولمكان استنبار الكنبانية واِضطبار البراجلات ، بحر من بحور الحنطة ، ومعدن للحبوب المفضلة ، ولمكان شُلَيْر ، حيل الثلج ، أحد مشاهير حيال الأرض الذي ينزل به الثلج شتاء وصيفاً

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج01، ص 14، 15.

[2] المصدر نفسه، ج01، ص 15.

، وهو على قبلة منها على فرسخين ، وينساب منه ستة وثلاثون نهراً من فوهات الماء ، وتنجس من سفوحه العيون ، صحّ منها الهواء واضطردت في أرجائها وساحاتها المياه ، وتعددت الجنات بها ، والبساتين ، والتفت الأدواج ، وشمر الرواد على منابت العشب في مظان العقار مستودعات الأدوية والترياقيّة ، وبردها لذلك ، فهي المنقلب الشتوي شديد ، وتجمد بسببه الأدهان والمانعات ، ويتراكم سبحاتها الثلج في بعض السنين ، فجسوم أهلها لصحة الهواء صلبة ، وسحانهم خشنة ، وهضومهم قوية ، ونفسوهم لمكان الحر العزيزة جرية [1] .

وبفحصها وما يتصل به القرمز ، وبها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية ما لا يحتمل ذكرها الإيجاز ، وكفى بالحرير الذي فضلت به فخراً وقيته ، وخلة شريفة ، وفائدة عظيمة ، تمتاره منها البلاد ، وتجلبه الرفاق ، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية ، وفصحها الأفيح ، المتشبه بالغوطة الدمشقيّة حديث الرّكاب ، وسهر الليالي ، وقد دحاه الله في بسط شهاب تخترقه المذانب ، وتتخلله الأنهار جداول ، وتتزاحم فيه القرى والجنان ، في درع أربعين ميلاً أو نحوّها ، تنبوا العين فيها من وجهة ، ولا تتخطى المحاسن منها إلا مقدار رقعة الهضاب ، والجبال المتاطمية منه بشكل ثلثي دارة ، قد عدت منه المدينة فيما يلي المركز لجهة القبلة ، مستندة إلى أطواد ساميّة وهضاب عالية ، ومناظر مشرقة ، فهي قيد البصر ، ومنتهى الحسن ، ومعنى الكمال ، وأضفى الله عليها ، وعلى من بها من عباده المؤمنين جناح شره ، ودفع عنهم عدو الدين بقدرته [2].

حضرة سنية ، والشمس بها من مدح المادح جنية كبرت حتى قيل ، وقال وجلت عن واصف ، وقال : وقيّدت العقل بعقال ، وأمنت حال حسنها من اِنتقال لو خيرت في حسن الوضع لما زادت وصفاً ، ولا أحكمت رصفاً ، ولا أخرجت أرضها ريحاناً ولا عصفاً ، ولا أخذت بأشتات المذاهب، وأصناف المواهب جداً ولا قصفاً ، كرسيّها ظاهر الأشراف ، عطل على الأطرف وديوانها مكتوب بآيات الأنفال والأعراف ، وهواءها صافٍ ، وللأنفاس مصاف

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج01، ص 16.

[2] المصدر نفسه، ج01، ص 18.

حجبت – الجنوب عنها ، الجبال ، فأمن الوباء وأصبح ساكنها غير ميال ، وفي جنة من النبال ، وأنفسحت الشمال ، واستوفت الشروط على الكمال ، وانحدر منها مجاج الجليد على الرمال ، وانبسط بين يديها المرج الذي نضرة النعيم لا تفارقه ، ومداره الذميم تفلى بها مفارقة ربع من واد به بثعبان مبين ، إن لدغ تلول شطه تلها للجبين ، وولدت حيّات المذانب عن الشمال واليمين ، وقلد منها اللبات سلوك تأتي من الحصباء بكل درّ ثمين ، وترك الأرض مخضّرة ، تغير من خضرة السماء صفرة ، والأزهار مفترة ، والحياة الدنيا بزخرفها مغترة [1] .

فتعددت القرى والجنات وحفت – بالأمهات منها – البنات ورق النبات ، وتدبجت الجنبات ، وتقلّدت اللّبات ، وطابت بالنواسم المهبّات ، ودارت بالأسوار دور السوار المنى والمستخلصات ، ونصبت لعرائس الروض المنصات ، وقعد سلطان الربيع لعرض القصات ، وخطب بلبل الدوح فوجب الإنصات ، وتموجت الأعناب ، واستبحر – بكل عذب الجنا – منها الجناب ، وزيّنت السماء الدنيا من الأبراج العديدة بأبراج ، ذات دقائق وأدراج ، وتنفست الرياح من أراج ، واذكرت الجنة كل ما أمل ما عند الله وراج .

وتبرجت بعمرانها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات ، سافرة عن صفحات القبات المزخرفات تقذف – بالأنهار من بعد المرتقى – فيوض بحورها الزرق وتنافى ، أذكار المآذن بأسمارها نذمات الورق ، وكم أطلعت من أقمار وأهلة ، وربت من ملوك جلة إلى التمدن المحيط الاستدارة ، الصادر عن الأحكام والإدارة ، ذي المحاسن غير المعارة ، المعجزة اللسان ، والميازب الحاضرة للرى المديمة ، والجسور العريضة ، والعوائد المقدرة [2] .

فلما تبسم زنجى الليل عن ثغر الفجر ، وشبّ وليد الصبح عن عقد الحجر ، ولحظتنا ذكاء بطرفها الرّمد ، وقد بقى الليل فيه بقية الإثمد اِستقبلنا الحشرة حرسها الله ، فأنست النفوس بعد

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص ص 113، 114، 115 .

[2] المصدر نفسه ، ص 119

إغترابها ، واكتحلت العيون بإثمد ترابها ، واجتلينا في فحصها الكريم الساحة ، الرّحب المساحة ، ما يبهر العين جمالاً ، ويقيّد الطرف يميناً وشمالاً ، أم البلاد والقواعد وملجأ الأقارب والأباعد ، تعدت مقعد الوقار ،ونظرت إلى الأرض بعين الاحتقار ، ومدّت إليها البلاد يد الإفتقار ، نصبت من الجبل منصة تعدت عليها ، وقامت وصائف القرى في ذلك البساط بين يديها ، فمن ذا يداينها أو يداريها ، أو يضاهيها في الفخار ويجاريها ، وهي غاب الأسود ،و الأفق الذي نشأت فيه سحاب الجود ، وطلعت به من الأمراء السعداء نجوم السعود ، سيدة الأمصار ، دارة الملوك ، من أبناء الأنصار ، ومصرع الطواغيت والكفار " والغمد الذي استودع سيوف الله دامية الشفار " .

وصلنا والجو مصقول كالفرند ، والسماء كأنها لصفائها مرآة الهند ، أحرج الحل من الأحقاق ، وعقد إزار الحلل على الأعناق واطلع أقمار الحسن على الآفاق ، وأثبت فخر الحضرة بالإجماع والاصفاق على دمشق الشام ، وبغداد العراق .

حتى إذا بلغنا قصور الملك ، وانهينا إلى واسطة السلك ، وقفنا مهتدين ومسلمين ، وقلنا أدخلوها بسلام آمنين ، والفت عصاها واستقربها النوى كما قرّ عينا بالآياب المسافر [1] .

وأغرناطة من معمور الإقليم الخامس : يبتدئ من بلاد يأجوج ، ثم مر على خرسان ، ثم يمر بسواحل الشام ، ثم على كثير من بلاد الأندلس إلى البحر المحيط الغربي ، فهي قرية من الإعتدال ، شاميّة في أكثر الأحوال ، بينهما وبين دار الملك الأول قرطبة – أعادها الله تسعون ميلاً ، وهي منها بين شرق وقبلة ، والبحر الشامي بين بحر وقبلة على أربعة يرد ، ولجبال بين شرق وقبلة ، والبراجلات بين شرق وجوف ، والكنبانية بين جوف وغرب .

فهي لمكان حوار الساحل ممارة بالسمك والبواكر ، طية للتجار ، ركاب للجهاد في البحر ، ولمكان استقبال الجبال مقصودة بالغو له المتأخرة اللّحاق متماسكة في الجدوب معللة بالمدخرات ، ولمكان إستدبار الكنبانية وإصطبان البراجلات بحر من بحار الحنطة ، ومعدن من معادن الحبوب

[1] ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس " مجموعة رسائل " ، ص 51ص، 52، 53.

المفضلة " والحرير والسكر " ، ولمكان جبل الثلج شلبر الشهير في جبال السفرة اطرت بها المياه ، وصحّ الهواء ، وتعددت البساتين والجنات ، والتف الدوح ، وكثرت الأعشاب الطيبة ، والعقاقير الدوائية [1].

ومن فضائها أنّ أرضها لا تعدم زريعة ولا ريعاً أيام العام ، وفي عمالتها المعادن الجوهرية من الذهب والفضة والرصاص والحديد والتونيا ، والمرقشيش والأزود ، وبجبالها وبطاحها الأندارسيون والسنبل والجنطيان وبشعرائها القرمز إلى غلة الحرير الذي فضلت به تجرا وقنية ، هذه الكورة ، فلا يشاركها في ذلك إلى البلاد العراقية مقصرة عنه رقة و لدونة و عنافة [2].

موقع غرناطة من خطوط الطول والعرض يلاحظ أنه يقول منها : أنّ غرطانة متساوية في الطول بأمر يسير لقرطبة ، وميورقة ، والمرية ، وهذا الكلام لا يفهم إلا إذا ذكرنا ما قلناه آنفاً من أنهم كانوا يتصورون شبه الجزيرة مثلث ، وأن ساحله الشرقي يسير في خط مستقيم من الشرق إلى الغرب ، وهذا يستتبع تصور أن قرطبة وغرناطة والمرية تقع على خط رأسي واحد تقريباً ، ولما كانوا يتصورون أن الجزائر الشرقية البليار في مواجهة المرية ، فقد قالوا أن ميورقة أيضًا تقع على نفس الخط إلى جنوبي المرية طبعاً .

وهو يقول أيضًا أنها مساوية في العرض الإشبيلية ، والمرية ، وشاطبة ، وطرطوشة ، وسردانيّة ، وهذا الطول أيضًا ناتج عن ذلك الخطأ في التصور [3] .

[1] لسان الدين بن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، نص محب الدين الخطيب ، القاهرة ، 1347م ، ص 12، 13.

[2] لسان الدين بن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ص 13.

[3] حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، ط 01 ، مدريد ، 1386 هـ -1967 م ، ط 1986 م ، ص 558، 559.

من عوائد أهل هذه المدينة غرناطة :

أحوال هذا القطر في الدين وأحوال العقائد أحوال سنيّة ، والأهواء والنحل فيهم معدومة ، ومذاهبهم على مذهب مالك ابن أنس إمام دار الهجرة جارية ، وطاعتهم للأمراء بحكمة ، وأخلاقهم في اِحتمال المعاون الجبائية جميلة ، وصورهم حسنة ، معتدلة أنوفهم ، بيض ألوانهم ، مسودة غالباً شعورهم ، متوسطة قدودهم ، فصيحة ألسنتهم ، عربية لغاتهم ، يتخللها عرف كبير ، وتتغلب عليها الإمالة ، وأخلاقهم أبيّة في معاني المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة الكثير .

ولباسهم الغالب على طبقاتهم الغاشي بينهم ، الملف المصبغ شتاء تتفاضل أجناس البزر منه بتفاضل الجدات والمقادير ، والكتان والحرير والقطن ، والمرعز ، والأردية الافريقية ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشفوعة صيتاً ، فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة ، ومنهم صنفان أندلسي وبربري [1].

الأندلسي منه يقوده رئيس من القرية أو أخطباء الدولة ، وزيّهم في القديم شبيه بزي جيرانهم ، وأمثالهم من الروم في أسباغ الدروع وتعليق الترسنة وجفاء البيضات ، واتخاذ عراض الألسنة ، وشياعة قرابين السروج ، واستركاب جملة الريات خلفهم ، ثم عدلوا الآن عن هذا الذي إلى الحواشي المختصرة ، والبيضات المذهبة والسروج العربية ، واليلب اللمطية والأمل اللطيفة .

والبربري منه ترجع قبائله المرينية والتجانية والعجيسية والعرب المغربية إلى أقطاب ورؤوس يرجع أمرهم إلى رئيس على رؤسائهم وقطب لعرفائهم من كبار القبائل المرينية يمت إلى ملك المغرب بنسب .

[1] لسان الدين بن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ص 27.

والعمائم تقل في زيّ أهل هذه الحضرة إلاّ ما شذّ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند الغربي منهم.

ومبانيهم متوسطة ، وأعيادهم حسنة مائلة إلى الإقتصاد ، والغناء بمدينتهم فاشٍ حتى بالدكاكين التي تجمع كثير من الأحداث [1] .

وعادة أهل هذه المدينة الانتقال إلى خلال العصبر أوان إدراكه بما تشتمل عليه دورهم أو البروز إلى الفحوص بأولادهم وعيالهم ، معولين على شهامتهم وأسلحتهم على كثبر عودهم ، واتصال أبصارهم بحدود أرضه .

وحليهم في القلائد والدمالج والخلاخيل ، والشنوف الذهب الخالص إلى هذا العهد في آل جدة واللجين في كثير من آليات الرجلين فيمن عداهم .

والأحجار النفيسة في الياقوت والزبرجد والزمرد ، ونفيس الجوهر كثير فيمن ترفع من طبقاتهم المستندة إلى ظل أمة ، أو عرف ، أو أصالة موفورة وحريمهم حريم جميل موصوف باعتدال السمن وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب الشدا ، وخفة الحركات ، ونبل الكلمات وحسن المحاورة ، إلا أن الطول يندر فيهن ، وقد بلغت في النفس في الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصنفات ، والتنافس في الذهبيات ، والديباجات وانتهجت في أشكال الحلي إلى غاية بعيدة [2].

الجانب الإقتصادي :

أورد لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة جوانب من الوضع الإقتصاي وكانت معلوماته دقيقة ، ولكنها بشكل مختصر ، فقد أشار إلى وفرة خبرات غرناطة ،

[1] لسان الدين بن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ص ص 27، 28.

[2] المصدر نفسه، ص 29.

وقال : فيها من القمح والشعير ، والكتاب ، وكثرة المرافق ، من الحرير والكروم ، والزيتون ، وأنواع الفواكه ، وكثرة العيون والأنهار ،ومنعه قبتها ، وأنطباع رعيتها ، وتأني أهل حاضرتها ، وجمال أشرافها وأطلالها " .

وقد إحصائيات بعد الجنات في مدينة غرناطة نحو قوله " الجنة المعروفة بفدان المنبه ، والجنة المعروفة بفدان عصام ، والجنة المعروفة بالمعروري ، والجنة المنسوبة لابن كامل ، وجنة النخلة العليا ، وجنة النخلى السفلى ، وجنة ابن عمران ، والجنة التي إلى نافع ، والجرف الذي ينسب إلأى مقبل ، وجن العرض ، وجنة الحفرة ، وجنة الجرف ، وجنة العريف كلها لا نظير لها في الحسن ، والدمانة والربيع ، وطيب التربة ، وغرقد السقيا ، والتفات الاستجار ". [1]

2-ولاية مالقة:

مدينة ساحلية اسبانية تعرف في اسبانيا باسم **Malaga** تقع جنوب شرق الاندلس،يرجع تاسيسها الى الفنقيين عام 1200ق م حيث كانت تعرف لديهم باسم **malaca**بمعنى المملح نسبة الى الاسماك المملحة التي اشتهر بها كانت عاصمة الحماديين الادارسة من ملوك الطوائف ،كانت العاصمة الثانية لملوك بني الاحمر[2]

وموقعها متاخم لساحل البحر الابيض شرقي غرناطة ،واهم مدنها مالقة ،مربلة ،رندةو انتقيرة ،وارشدونة ،وبليش مالقة ،وقمارش كما تتبعها طريف ،وجزيرة الخضراء وجبل طارق [3]

وتفنن في وضعها حيث قال :وما قول في ذرة الوسيطة وفردوس هذه البسيطة؟ اشهد ولو كانت صورة لقرنت بها حذقة الاطعام او يوم لكانت عيدا في العام ،تبعث لها بالاسلام مدينة

[1] – ساجد مخلف حسن،المعطيات الحضارية في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب مجلة العلوم الإسلامية ,العدد الثاني ،شعبان 1430ه،ص ص188189190

[2] –ابن الخطيب ،كناسة الدكان بعد انتقال السكان ،ص 16 الهامش رقم 02

[3] –المصدر نفسه،ص16

السلام اي دار وقطب مدار وهالة أبدار وكنز تحت جدار ،قصبتها مضعافة الاسفار مصاحبة للسنين مخالفة للادوار ،قد برزت في اكمل الاوضاع واجمل الاطوار .كرسى ملك عتيق ،ومدرج مسك فتيق ،ايوان اكاسرة ،ومرقب عقاب كاسرة،ومجلى فاتنة حاسرة ،وصفقة غير خاسرة ،فحماها منيعة حريز ،اضطبنت دار الاسطول ،وساوقت البحر بالطول ،واسندت الى جبل الرحمة ظهرها ،واستقبلت ملعبها ونهرها ،ونشقت وردها الارج وزهرها وعرفت ،نمأغلت مهرها ،فتحت جفنها على الجفن غير الغضيض ،والعالم الثاني مابين اوج الى الحضيض [1]

دار العجائب المصنوعة ، والفواكه غير المقطوعة ، ولا الممنوعة؛ حيث الأواني تلقى لها بد الغلب صنائع الحلب ، والحلل التي تلح صفاء فيها بالطلب وتدعو إلى الجلب ، إلى الدست الرهيف ، ذي الورق الهيّف ، وكفى برمانها حقاق ياقوت ، وأمير قوت ، وزائر خير ممقوت ، إلى المواساة ، وتعدد الأساة ، وإطعام الجائع ، والمساهمة في الفجائع ، وأي خلق أسرى من استخلاص الأسرى ، تبرز منهم المخدرة حسرى ، سامحة بسواريها ، ولو كانا سوارى كسرى ، إلى المبخرة التي تسرح بها العين ، وتستهان في ترويض روضاتها ، العين إلى غللها المحكمة البنيان الماثلة كنجوم السماء للعيان ، وافتراض سكانها – أوان العصر – على الأعيان ، و وفور أولى المعارف والأديان ، وأقطارها جد شاسعة ، وأزقتها لزجة غير واسعة ، وآبارها تفسدها أزفارها ، وطعامها لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الأحزان ، وجوعها ينفى به هجوعها ، تحث على الأمواج أقواتها ، وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها ، وأرحيتها النوائب ، وتصيب أهداف السهام الصوائب ، وتعدها الجنائب ، وتستخدم فيها الصبا والجنائب ، وديارها الآلهة بالسكان قد صم بالنزائل صداها ، وأضحت بلاقع بها كسبت يداها ، وعين أحيانها أثر ،

[1] –ابن الخطيب ،معيار الاخيار في ذكر المهاهد والديارص ص 87 89.

ورسم مجادتها قد دثر ، والدهر لا يقول لمن عثر ، ولها بنظم شملاً إذا انتثر ، وكيف لا يتعلق الذام ، ببلد يكثر به الجذام ، محلة بلواة آهلة ، والنفوس بمعرة عدواه جاهلة [1] .

ومالقة أرفع قدراً وأشهر ذكر ، وأجل شأن ، وأعز مكان ، وأكرم ناسا ، وأبعد التماس ، من أن تفاخرا وتطاول ، أو تعارض أو تصاول ، أو تراجع وتعادل ، ولكني سأنتهي إلى غرضك ، وأبين رفع مفترضك ، وأباين بين جوهرك وعرضك .

فتقول الأمور التي تتفاضل بهذا البلدان ، وتتفاخر منها بين الأخوان ، وتعرفه حتى الولائد والولدان ، هي المنعة والصنعة ، والبقعة والشفعة ، والمساكن والخضارة ، والعمارة والإمارة والنضارة .

فأما المنعة فا- مالقة حرسها الله ، فضل الارتفاع ، ومزية الامتناع ، أما قصتها فاقتعدت الجبل كرسياً ، ورفعها الله مكان علياً ، بعد أن ضوعفت أسرارها وأقوارها ، وسما بسنام الجبل المبارك منارها ، وقربت أبراجها ، وصوعدت أدراجها ، وحصنت أبوابها ، وعزز جنابها ، ودار ببلدها السور والجسور ، والخندق المخفور ، فقلهرانه مدائن بذاتها ، وأبوابها المغشاة بالصفائح ، شاهد بمهارة بناتها ، وهمم أمرائها وولاتها كأنها لبست الصباح سريلا ، أو غاصت في نهر الفلف بهاء وجمالا ، أمنت من الجهة البحر النقية ، ودار بها من البحر الحقير والسلوفية ، لا تجد العين بها عورة تنفى ، ولا شملا من يرقى إلى الريضين ، اللذين كل واحد منها مدينة حافلة ، وعقلية في جل المحاسن وافلة [2]، ومالفة حرسها الله طراز الديباج المذهب ، ومعدن صنائع الجلد المنتخب ، ومذهب الفخار ، المجلوب منها إلى الأقطار ، ومقصد المناع المشدود ، ومضرب الدست المضروب ، وصنعاء صنائع الذياب ، ومحح التجار الإياب لأفعام العياب بشهادة الحس والجند والأنس ، ولا بذكر طلوع الشمس ، خصّ الله مالفة بما افترق في سواها ، ونشر بها

[1] لسان الدين بن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص ص 89، 91.

[2] لسان الدين بن الخطيب ، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس ،ص ص 57، 59.

المحاسن التي طواها ، إذ جمعت بين حرث الرمال وخصب الجبال ، وقامرة الفلاحة ، المخصوصة بالاعتدال ، والبحر العديد الصداع ، المسيرة مراسية للحظ والاقلاع ، والصيد العديم الانتفاع ، جبالها لوز وتين ، وسلهلها قصور وبساتين وكفى ، وبحرها حيتان مرتزقة في كل حين ، ومزارعها المغلة عند اِشتداد السنين ، وكفى بفحص قامرة صادع بالربهان المبين ووواديها الكبير عذب فرات ، وأدراج مثمرات ، وميدان ارتكاض بين بحر رياض ، إذ مالفة دار الملك في الروم ، والبساتين ذات المرأى العجيب ، والقصور المبتناة بسفوح الجبال ، والجنات الوارفة الظلال ، والبرك الناطقة بالعذب الزلال والملابس المختالة في أفنان الجمال ، والأعراس الدّالة على سعة الأحوال والسورات المقدرات بالآلاف من الأموال [1] .

وأما العمارة أين يذهب رائدها ، وعلام يعول شاهدها ، وما دار عليه السور متراكم متراكب ، منتسجة مباينة كما تفعل العناكب ، فناديقة كثيرة ومساجدة أثيرة ، أرباضه حافلة ، وفي حلل الدوح رافلة ، وسلكه غاصة ، وأسواقه بالدكاكين متواضعة ، أقسم لبرهن أرياضها أعمر من مدينة سلا ، وأبعد عن جود الخلا ، واملأ مهما ذكر الملأ ، بلد منحرق منقطع منفرق ، ثلثه مفيزة ، ثلثه مفيزة خالة ، وثلثه حزب بالية ، وبعضه أخصاص وأقفاص ومعاطن وقلاص ، وأوارى بقر تحلب ، ومعاطن سائمة تحلب ، .

وأما الإمارة فلمالفة القدح المقلى ، والتاج المحلى ، وهو على كل حال بالفضل الأولى ، حيث مناهل المختص ، والخارج الأفيح الفحص ، وأما النضارة فمن اِدعى أنه ليس في الأرض ، فمن اِدعى أنه ليس في الأرض مدينة أنضر منها جناباً ، ولا أغزر منها غروساً وأعناباً ، ولا آرج أزهار ولا أصف أنهاراً لم تكذب دعواه ، ولا أزرى به هواه ، إنما هي كلها روض ، وجابية حوض بساتين قدر قمتها الأنهار وترنمت لها الأطيار [2] .

[1] ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، ص ص59، 60، 61.

[2] المصدر نفسه، ص 62، 63

أما المساكن ، فحسبك ما بمالقة من قصور بيض ، وملك طويل عريض ، جنة السيد ، وما أدراك ما بها من جنة دانية القطوف ، سامية السقوف ، ظاهرة المزية والشفوف ، إلى غيرها مما يشذّ عن الحصر ، إلى هذا العصر ، والجات التي تملأ السهل والجبل ، وتجاوزت الأمل ، بحيث لا أسد يمنع الأصحار بالعشى والأسحار ، ولا لص يستجن بسببه في الديار .

و أما المساكن بمالقة بين راهن قيد الحياة ، ومنتقل من جنانها إلى روضات الجنان ، فأكبر به أن يفاضل ، أو يجادل فيه ، أو يناضل ، ولا شاهد كالصلات الباقية المكتتبة ، والتواريخ المقررة المرتبة ، ومالفة قطر من الأقطار ذوات الأحذار والأخطار ، وتحصيل الأوطار [1].

3-بليش مالقة : [2]

جادها المطر الصيّب ، فنعم البلد الطيّب ، حلى وتحر ، وبر ولوز وتين وسبب من الآمن متين ، وبلد أمين ، وعقار ثمين ، وفواكه عن شمال ويمين ، وفلاحة مرعى انجابها لا يمين ، إلا أن التشاجر بما أنهى من الشجر ، والقلوب أقصى من الحجر ، ونفوس أهلها بينة الحسد والضجر ، وشأنها غيبة ونميمة ، وخبث مائها ، على ما سوّغ الله من آلاتها تميمة [3]

4-قمارش :[4]

مودع الوفر ، ومحط السفر ، ومزاحم الفرخذ والفخر ، حيث المعدن والقوت المعين ، لا يخامر قلب الثائر به خطرة وجله ، إلا من أجله طالما فزعت إليه نفوس الملوك الأخاتر بالذخائر ، وسقت عليع أكياس المرائر في الضرائر ، وبه الأعناب التي راق بها الجناب ، والزياتين ، واللّوز

[1] ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب ،المصدر السابق ، ص 63، 64.

[2] المصدر نفسه ،ص ص63،64

[3] هي اسبانية : **velez malaga** موقعها غرب مدينة مالقة على مسافة 34 كلم ،وقد تحدث ابن بطوطة عنها في الرحلة بما يؤيد وصف ابن الخطيب ,لسان الدين ابن الخطيب،"معيار الاخيار في ذكر المعاهد والديار،ص 92

[4] قمارش: هي **comares**احدى الحصون الهامة ايام مملكة غرناطة وتقع قربها ،المصدر نفسه ص 92

والتين ، والحرث الذي له التمكين والمكان المكين ، إلا أنه عدم سهله ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه إلا أهله

5-ولاية المرية :

وتعرف بالاسبانية باسم **Almaria** وهي مدينة ساحلية كبيرة تقع جنوب شرق الأندلس ، بينها وبين مالفة 222كلم ، من أجمل الثغور والمدن الأندلسية ، وهي عاصمة الولاية يبلغ تعداد سكانها حوالي 500 ألف نسمة ، من أهم صادراتها الحديد ، الرصاص ، الفاكهة ، وكانت في العهد الإسلامي من أهم الثغور الأندلسية الجنوبية ، بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (344هـ - 955م) وسقطت ففي يد الاسبان (1490م – 895هـ) [1] .

وتشل المساحة التي تشملها مرسية حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وأهم مدنها : المرية ، أندرس ، دلاية ، برجة ، برشانة ، المنصورة ، وبيرة [2]. ويضيف عنها قائلا:

"بحرية بريّة ، أصلية سريّة ، معقل الشموخ والإبانة ، ومعدن المال ، وعنصر الجباية ، وحبوة قاعدة الأسطول ، غير المعلل بالنصر ، ولا الممطول ، ومحط التجار وكرم النجار ، ورعى الجار ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجنوب السود مسلولة ، وتلك مطولة وحضارة تعبّق طيباً ، ووجوه لا تعرف تقطيباً ، ولم تنزل مع الظرف ، دار نساك ، وخلوة إعتكاف وإمساك" [3].

بحرها مرفأ السفن الكبار ، وكرسيّها هو العزيز عند الاعتبار وقصد بها سلوّه عن الحزين ومودع الحزين ، وفلك المتنذرين ، وهي محل الغلل ، المجديّة ، المشفوعة الأردية ، ولواد بها المزية على الأدوية ، حجة الناظر المفتون ، المكسو الغصون ، والمتون بالأعناب والزيتون .

[1] لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، المصدر السابق ،ص 16 ، هامش رقم 01.

[2] المصدر نفسه ، ص 16.

[3] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ،المصدر السابق ، ص 100.

بلد الخام والرخام ، والذمم الضخام ، وحمتها بديعة الوصف ، محكمة الوصف ، مقصودة للعلاج والقصف ، حرّها شديد ، وذكرها طويل مديد ، وأثرها على البلى جديد ، إلا أن مغارمها ثقيلة ، وصفحة جوها – في المحول – صقلية ، وسماؤها بخيلة ، وبروقها لا تصدق منها مخيلة ، وبلالة النطية منزورة العطية ، وسعرها من الأسعار غير الوطيّة ، ومعشوق البحر بها قليل الوصال ، وحمل البحر صعب الفصال ، وهي متوقعة إلا أن يقي الله طلوع النضال ، وعادة المصال [1].

6-المنكب :

مرفأ ساحلي يقع جنوب شرق الأندلس بقاطعة غرناطة ، يدعى الآن **Almunecar** ، وقد نزل الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بهذا الميناء عند دخوله الأندلس في 138هـ - 755م ، وهذا ألأمير هو الذي عرف بعدث الدامل [2].

مرفأ السفن ومحطها ، ومنزل عباد المسيح ومختطها ، بلدة معقلها منبع ، وبردها صنيع محاسنها ، ذات تقنيع ، والقصر المفتح الطبقات ، المحكم الاتقان ، والمسجد المشرق المكان ، والأثر المنئ عمن كان ، وكان كأنه مبرد واقف ، أو عمود في يد مثاقف ، قد أخذ من الدهر الأمان ، وتشبه بصرح هامان ، وأرصفت جوانبه بالصخر المنحوت ، وكان أن لا يصل ما بين الحوت والحوت ، غصن بقصب السك أرضها ، واستوعب بها طولها وعرضها ، زبيبها فائق ، وجنابها رائق .

وقدمت إليها جدل الشوار بنسب الجوار ، منشأ الأسطول بعدته ، غير ممطول ، وأمده لا يحتاج إلى الطول ، إلا أن اسمها مظنة طيرة تشتنف فالتنكيب عنها يؤتنف ، وطرقها يمنع شر سلوكها من تردد ملوكها ، وهواؤها فاسد ، ووباؤها مستأسد ، وجارها حاسد ، فإذا التهبت

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ،ص ص 102، 103.

[2] المصدر نفسه، الهامش 90،ص 103

السماء ، وتغيرت بالسمائم المسميات والأسماء ، فأهلها – من أجداث بيوتهم – يخرجون وإلى جبالها يعرجون ، والودك إليها مجلوب ، والقمح بين أهلها مقلوب ، والصبر إن لم يبعثه البحر مطلوب ، والحرباء بدرانها مطلوب ، والحر – بدم الغريب مطلوب [1] .

7-برجة :

"تصحيف وتحريف ، وتغيير في تعريف ، ما هي إلا بهجة ناظر ، وشر خاطر ، ونسيجه عارض ماطر ، وبارين نفس عاطر ، عقارها ثمين ،وحرمها أمين وحسد بادٍ وكمين ، عقود أعنابها قد فرطت آذان الميس والحور ، وحقائل أدواعها مبتسمة عن ثغور النور ، وسيطها متواضع عن النجد ، مرتفع عن الغور ، وعينها سلسالة ، وسبائك المذانب منها مسالة ، تحمل إلى كل جهة رسالة ، ودورها في العراء مبثوثة " وركائب النواسم بينها محتوتة " ، لا تشكو بضيق الحوار ، واستكشاف العوار ، وتزاحم الزوار "

مياه وظلال وسحر جلال ، وخلق دمث كثراها محاسن متعددة كقراها ، ولطافة كنواسمها ، وأعيان ووجوه تجل العيون ، بيض الوجوه ، غلتهم الحرير ، ومجادتهم عذبة ما التقرير ، إلاّ أن مبوأها بسيط مطروق ، وقاعدتها فروف ، ووتدها مفروق ، ومعقلها خرب ، كأنه أحد جرب ، إن لم ينقل إليه الماء برج به الظماء ،والين بها نزر الوجود ، واللّحم تلوه وهماً طيبا الجود ، والحرف بها ذوابة العود ، والمسلك إليها بعيد الصعود [2] .

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص ص 94-96.

[2] المصدر نفسه، ص ص 98-99.

8-دلاية :

قال خير رعاية وولاية ، حرير ترفع عن الثمن ، وملح يستفد على الزمن ، ومسرح معروف ، وأرض ينبت بها حين وحزوف ، إلا أنها لسرايا العدو البحرى مجرى الدولى ، ومحل الفتكات على التوالي فطريقها ، صوف ومشاهد ، والعارف في مهلها زاهد [1] .

9-طبرنش :

حاضرة البلاد الشرقية ، وثنية البارقة الأفقية ، ما شتت من تنجيد بيت ، وعصير الزيت ، وإحياء أنس ميت وحمام طيب ، وشعب نتتر فيه دنانير أبي الطيب ، إلا أنها محبلة الغيوب ، عادية اللبوث ، متحزبة الأحزاب ، شرهة الأحزاب ولو شكر – الغيث – شعيرها ، أخصبت البلاد – غيرها [2] .

10-بيرة : [3]

بلدة صافية الجو ، رحيبة الدو ، يسرح بها البعير ، ويجم بها الشعير ، وقصتها من مرسية وأحوازها ، العبر ، ، فساكنها بين تجر وابتغاء أجر ، ووادیها نیلي الفیوض والمدود ، مصرى التخوم والحدود ، إن بلغ إلى الحد المحدود ، فليس رزقه بالمحصور[4] ، ولا بالمعدود إلا أنها قليلة المطر ، مقيمة على الخطر ، مثلومة الأعراض والأسوار ، مهطمة لداعي البوار ، حليفة حسن مغلوب ، معللة بالماء المجلوب ، آخذة بأكظام القلوب ، خاملة الدور ، قليلة الوجوه والصدور ، كثيرة المشاجرة والشرور ، برها أنذر من يرها في المعتمر والبور ، وزهد أهلها في الصلاة شائع في الجمهور ، وسوء ملكة الأسرى من الذائع بها والمشهور

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار المصدر نفسه، ص 99.

[2] المصدر نفسه ، ص 103.

[3] بيرة:بالاسبانية **vero** ‘تقع شمال شرق مملكة غرناطة ‘وهي بلدة مرتحلة على ساحل البحر الابيض المتوسط مما اكسبها اهميتها الحربية‘ المصدر نفسه ،ص 105

[4] المصدر نفسه ، ص 105.

11-بجاقر :

حصن جديد ، خبر مديد ، وبحر ما على إفادته مزيد ، وخصبت ثابت ويزيد " ، ساكنة قد قضى –الحج– أكثره ، وظهر عين الخبر وأثره ، إلا أنه لا تلقى به للماء – بلالة ، ولا نستشف للجود حلاله[1]

وحليمنا من بيرة حرسها الله بالثغر الأقصى ، ومحل الرباط الذي أجر ساكنه لا يحصى ، بلدة عدوها متعقب ، وساكنها خانق ومترقب ، مسرحة بعز ومزرعة شعير ، إذا كرت الوابل ، وانبتت حبها سبع سنابل ، ونجلاها بالهشيم قد شابت ، وزروعها قد دعى بها الفصل فما ارتابت ، ونداء وآتوا حقه يوم حصاده أجابت ، أرجنا بها يوم صحافية الجو من سكرته وآفاق من غمرته ، فقيل للنفوس شأنك ودمائك ، ويا أرض إبلعي ماءك ، وتجلت عقلية الشمس معتذرة عن مغيبها مغتنمة غفلة رقيّها . [2]

ورحلنا من الغد وشمل الأنواء غير مجتمع ، والجو قد أنصت كأنه يستمع ، بعد أن تمخضى الرأى عن زبدته ، واستدعى من الأدلاء من وثق بنجدته ، وكثر المستشار ، ووقع على طريق قيشر الاختيار ، وانتدب من الفريق إلى دلالة تلك الطريق ، رجل ذو احتيال ، يعرف بابن هلال ، استقبل بنا شعباً مقفلا ، ومسلكنا مغفلا ، وسلما حرج الدرج ، سامي المنعرج ، تزلق الدر في حافاته ، وتراع القلوب لتوقع آفاته ، ويتمثل الصراط عند صفاته ، أو عار لا تتخلص منها الأوحال ولا تغنى السنابك فيها و لا النعال ، قطعنا بياض اليوم ، تسنم جبالها ، والتخبط في

[1] **بجاقر** : بالإسبانية **Mojacar** إحدى قرى الأندلس الصغيرة ، ما زالت حتى اليوم ، وما زالت نساؤها حتى الآن يرتدن الحجاب .لسان الدين ابن الخطيب معيار الاخيار ص 105

[2] ابن الخطيب ،معيار الاخيار في ذكر المعاهد والديار ،ص 105

حبالها ، نهوى من شاهق إلى وهد ، ونخوض كل مشقة وجهد ، كأننا في حلم محسوم ، أو أفكار مغموم [1] .

ولما طال مرام العروج إلى جو السماء ذات البروج ، قلت يا قوم انظروا لأنفسكم فيما أصبحتم فيه ، واعلموا أن دليلكم ابن هلال عزم على اللحاق بأبيه ، ثم أخذت في الانحدار بأسرع الابتدار نهوى من المرقب السامي الذرى ، ونهبط من الثريا إلى الثرى ، ونتمثل في ذلك المسلك الواحد ، يقول الشاعر :

بِطَرِيْق يِبْرَة أَجْبُلٌ وعِقَابُ لاَ يُرْتَجَى فِيْهَا النَجَاة عِقَاب .

فَكَأَنَمَا المَاشِي عليْهَا مُذْنِبُ وكَأَنَّمَا تِلْكَ الِعَقَابُ عُقَاب [2] .

12-قنتورية : [3]

قال يسار يمينها ، وغبار كمينها ، ومعمول يمينها ، يجود بها الجبن والعسل ، ومن دونها الآسل ، وأما عن الخبر فلا تسل ، وإن كانت أحسن شكلاً ، فأقل شرب وأكلاً ، وأجفا أهلاً ، وأشد جهلاً ، وأحدم علا ونهلاً ، وأهلها شرار ، أضلعهم بالظلماء جدار لا تلقى بها نغبة ماء ، ولا تعدم مشقة ظماء ، ولا تتوح أفقها إلا في الندرة قزعة سماء [4] .

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ،ص ص 40- 41.

[2] المصدر نفسه،ص 41.

[3] قنتورية :هي **cantora**تقع جنوب برشانة على نهر المنصورة ،لسان الدين ابن الخطيب ،معيار الاخيار ،ص 106

[4] المصدر نفسه، ص ص105- 106.

13-برشانة : [1]

حصن مانع ، وجناب يانع ، أهلها أولوا حداوة لأخلاق البداوة ، وعلى وجوهم نضرة ، وفي أيديهم نداوة ، يداوون بالسلافة حلل الجلافة ، " ويؤثرون علل النطق على لذة الخلافة " ، فأصبح ربعهم ظرف ، قد ملئ ظرفاً ، فللمجون به يسوق ، وللفسوق ألف سوق ، تشمر به الأذيال عن سوق ، وهي تبيّن بعض بيان عن أعيان ، وعلى وجوه نسوانها طلاقة ، وفي ألسنتهم ذلاقة ، ولهن بالسفارة في الفقراء علاقة ، إلا أن جفنها ليس بذي سور يفيه مما ينقيه ، وعنها يتكلم ملئ فيه ، وجلبها بشقي بالسفيه ، ومحياها تكمن أجبة الجور فيه [2] .

طلعنا برشانة حرسها الله ، فحدينا ببواكر الورد ، ونضت عنا برود البرد ، وشملتنا بالهواء المعتدل ، وأظلتنا برواقها المنسدل ، بلد أعيان و صدور ومطلع نجوم وبدور ، وقلعة سامية الجلال ، مختمة بالكواكب ، متوجة بالهلال ، حللناها في التبريز الحقبل ، والمشهد الجامع بين الذرة والفيل ، حشر أهلها بين دانٍ ونازح ، ومثل حاميها من نابل ورامح ، فكان ذلك المجتمع عيداً ، وموسماً سعيداً ، وبتنا في ليلة للأنس جامعة ، ولداع السرور سامعة ، حتى إذا الفرج تبلج ، والصبح من باب المشرق تولج سرنا وتوفيق الله قائد ، ولنا من عنايته صلة وعائد ، تتلقى ركابنا الأفواج ، وتحيدنا الهضاب والفجاج إلى قنتورية " حرسها الله " ، وناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال ، قريبة البكر من الأصال ، كان لطبيت بازاء قلعتها الساميّة الارتفاع ، الشهيرة الامتناع ، وقد برز أهلها في العديد والعدّة ، وللاحتفال الذي قدم به العهد على طول المدة ، صفوفاً بتلك البقعة خيلاً ورجلا كشطرنج الرقعة ، لم يتخلف ولد عن والد ، وركب قاضيها ابن أبي خالد ، وقد اشهرته النزعة الحجازية ، ولبس من حسن الحى زيّة ، وأرمى من البياض طيلسان وصبغ لحيته بالحناء والكتم ، ولاث عمامته ، واختتم ، والبداوة تسمه على الخرطوم ، وطبع الماء والهواء يقوده قود

---

[1] برشانة :هي **purchena** تقع على نهر المنصورة تتبع ولاية المرية ويوجد مكان اخر بهذا اسم بولاية حيان ،ابن الخطيب ،معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ص 106

[2] المصدر نفسه، ص 106.

الجمل المفطوم ، فداعبته مداعبة الأديب للأديب ، وخبرته بين فصلي الذيب ، وقلت نظمت مقطوعيش إحداهما مدح والأخر قدح ، فإن همّت ديمتك وكرمت شيمتك ، فالذين أحسنوا الحسنى ، والإفا لمثل الأذى ، فقال أنشدني لأرى على أي الأمرين أثناء ، وأفرق بين اجتنى [1] .

14-أورية : [2]

بلد الجبن والعسل ، والهواء الذي يذهب بالكسل ، وأما عن الماء البرود فلا تسل ادامة الصيد الذي لا يتعذر ، وقوته السفير الذي يبذر ، إلا أنه بادئ الوحشة ، الانقطاع والإجابة لداع المخالفة والاهطاع ، وجنس الجناب ، عرى من ثمرات النخيل والأعناب ، حقيق لمعرة العدو والاجتناب [3].

15-بليش الشفراء :

ثغر قصى ، وقياد على الأمن ، عصى ، ويتم لبس حلية ، غير العدو ، وصى ماؤه بعين ، وجوره عين ، وخلونه على النسك وسواه ، تغين ، وبه الحمام والنظف الجمام ، ولأهله بالصيادة اهتمام ، وعسله – إذا اصطفت العسول أمام ، إلا أنها بلدة منقطعة بائنة ، وبأحوان العدو كائنة ، ولحدود لورقة فتحها – مشاهدة معاينة ، وبرها الزهيد القليل يتحف به العليل ، وسبيل الأمن إليها غير سبيل ، ومرعاها لسوء الجوار – وبيل [4] .

---

[1] ابن الخطيب ،مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص ص 36- 37.

[2] هي معروفة اليوم باسم **oria**بولاية المرية ،ابن الخطيب ،معيار الاختيار ص 107

[3] المصدر نفسه ، ص 107.

[4] المصدر نفسه، ص ص 107، 109.

16-بسطة : [1]

وما بسطة بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمها نصيب ، دوحها متهدل ، وطيب هواؤها غير متبدل ، وناهيك من بلد اختص أهله في معالجة الزعفران ، وامتز ابه عن غيرهم من الجيران – عمت أرضها – السبق فلا تخلف وشملتها البركة يختص الله ويزلف ، يتخلى – مدينتها – الجدول المتدافع والناقع للفعل النافع ، ثياب أهلها بالعبير تتأرجح ، وحورها تتجلى وتتبرج ، وولدانها في شط أنهارها المتعددة – تتفرج ، ولها الفحص الذي بين فرقتيه الطرف سعياً ولا تعدم السائمة به ريا ولا رعياً .

إلا أن ترتبها تفضح البناء ، وإن صحبة الإعتناء ، فأسوارها تسجد عن الاقامة ، و خدوقها لا كسارها – تلقامة – فهي لذلك غير دار مقامة ورياحها عاصفة ، ورعودها قاصفة ، وحاميتها تنظر إلى الهياج من خلف سياج ، فالعدو فيها شديد الفتكان ، معمل الحركات وساكنها دائم الشكات ، وحدها فليل ، وأعيادها قليل ، وعزيزها ، لتوقع المكروه ، ذليل [2] .

17-أشكر : [3]

نعم البسيط المديد ، والرزق الجديد ، والتقى العديد ، والصيد والقديد ، تركب الجداول فحصها ، ويأبى الكمال نقصها ويلازم ظل الخصب شخصها ، مسرّج البهائم ، ومعدن الرعى الدائم إلا أنّ معقلها لا يمنع ، ومكانها يحوم عليه الحادث الأشنع ، ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع [4].

---

[1] هي **velez rubio**تقع قرب مدينة لورفة علاوة على بليش البيضاء **y.en.sur proscimidales blanc** ،ابن الخطيب ،معيار الاخيار ص 107

[2] المصدر نفسه، ص ص 109، 110.

[3] اشكر:هي **hurecat**تتبع ولاية غرناطة موقعها شمال بسطة وبتير سميونيت عند ذكر هذه المدينة الى منزعات التي بين مسلمين ونصارة ايام،المصدر نفسه ص 110

[4] المصدر نفسه، ص 110.

18-قشبالش : [1]

معدن حرير خلصت سبائكه ، وأثرى بزازه وحائكة ، وتهدلت حجا له وتمهدت أرائكه ، وحباية سهل اقتضاؤها ، وجمّت بيضاؤها ، إلا أنه وطن عدم ادامه ، وبيت ظهر هندامه ، وفقدت به حيل التعيش ، وأسبابه ودغل لا يقيم به إلا أربابه [2] .

19-أندرش : [3]

عنصر جباية ، ووطن بهم أولوا أباية ، حديدها ذهب ، وتبرها تبر منتهب ، وماؤها سلس ، وهواؤها لا يلقى معه كسل إلا أنها ضيّقة الأحواز والجهات ، كثيرة ، والبطالة فلا يعدم ذو الزرع عدواناً ، ولا يفقد حير الشرنزوانا وطريقها غير سرى ، وساكنها ضعيف يشكو من قوي [4] .

20-فنيانة : [5]

مدينة للخير حديثة ، ما شئت من ظي عزيزة ، وعصب طرير ، وعلة وحديد ، وماء نمير ، ودوام للحزين ، وتعمير إلا أن به كثبر ، وودقها نشير ، وشرارها لهم في الخيار تأثير [6].

---

[1] تسمى بالاسبناسة **jubles** موقعها بأطراف جبل الثلج **sieraa nevada** ويصب في البحر الابيض ،ابن الخطيب ،معيار الاختيار، ص 111

[2] المصدر نفسه، ص 111.

[3] اندرش :هي **andorax** تتبع المرية مدينة صغير،مدينة صغيرة توجد الأن قرب ولايتها ،واسمها يطلق عل نهر هناك ينبع من جبل الثلج **seiraa nevada** المصدر نفسه ،ص 111

[4] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص 111.

[5] هي **finana** تقع ضمن مقاطعة المرية على مسافة 30 كلم ،جنوب شرق وادي آش ،المصدر نفسه ص 113

[6] المصدر نفسه، ص 113.

21-وادي آش : [1]

مدينة الوطن ، ومناخ من عبر ، أو قطن للناس ما بدى ولله ما بطن ، وضع سديد وبأس شديد ، ومعدن حديد ، ومحل عدة وعديد ، وبلد لا يعتقل فيه إلا النسيم ومرآى يخجل منه الصباح الوسيم ، كثيرة الجداول والمذانب ، محضرة الجوانب إلى الفواكه الكثيرة ، والكروم الأثيرة ، والسقى الذي سيد الخطبة ، ويضاعف الذّلة ، وسندها معدن الحديد والحرير ، معقلها أهل للتاج والسرير ، وهي دار حساب ، وإرث واكتساب ، وأدب وحساب ، وماؤها مجاج الجليد ، وهواؤها يذكي طبلع البليد ، إلا أن ضعيفها يضيف حلية المعاش ، وناقهها يتعذر عليه الإنتعاش ، وشيخها يسطو على عصية الارتعاش ، فهي ذات برد ، وعكس وطرد ، ما شئت من لحى راعد ، وشرور نسل المتاجر وفاجر يسطو بمفاخر ، وكلف بهاجر ، واغتنام تبلغ به القلوب الحناجر ، وزمهرير تجمد له المياه في تاجر شهر ، وعلى ذلك فدرتها اسمح للحالب ، ونشيدتها أقرب للطالب ، ومحاسنها أغلب والحكم غالب[2].

واستقبلنا مدينة وادي آش ، حرسها الله ، وقد راجعت الإلفتات ، واستدركت ما فات ، فتجلت المخدرات ، وقذفت بمن اشتملت عليه الجدرات ، وتنافس أهلها في العدّة والعديد ، وإتّخاذ شكل الحديد ، فضاف رحب المجال ، واختلط النساء بالرجال ، والتف أرباب الحجا بربات الحجال ، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حمر البنود ، وحمر الخدود ، وبتنا بإزائها ونعم الله كافله ، ونفوسنا في حلل السرور رافلة حتى إذا ظلّ الليل تقلص ، وحمام الصبح من مخالب غرابه قد تخلص ، سرنا وعناية الله صافية ، ونعمة وافية .

فعزّ لنا بوادي فردوس ، منازلنا المعتادة ، وقلنا رجع الحديث إلى قذادة ، وبها تلاحقت وفود التهاني ، وسفرت وجوه الأماني ، نزلنا منه بالمروح ، وتفتحت بها أزهار القباب البيض في

[1] وادي اش :هي **Guadix**تقع شمال شرق غرناطة على نهر "فردس"وتبعد عن غرناطة بنحو 55كلم لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ،هامش 176 ص 115

[2] المصدر نفسه، ص 116

بساطها العريض ، وخطرت ببالي مقطوعة في مدح المولى ، أنجح الله عمله ، ويسر من فضله أمله ، أثبتها على حكم الاستعجال .

وبتنا تتعلق بأنفسنا الحضرة العاطرة ، ونستطل بسمائها الماطرة ، ونعلن بالاستبشار ، ونحن إلى الأهل حنين العشار [1] .

22-شلوبانية : [2]

أختها الصغرى ، ولدتها التي يشغل بها المسافر ويغري حصانه معقل ، ومرقب متوكل ، وغاية طائر ، وممتنع ثائر ، ومتنزه زائر ، والمشفوعة ، ففي المصيف ، تلعب بالعقل الحصيف ، وفي الخريف ، تسفر عن الخصب والزيف ، وحوت هذه السواحل أعذر ، من ميلة تعزى القوافل إلى البلاد بحمله ، إلى الخضرة الباكرة وعقلية ممهورة ، ووداعة في السهل غير مبهورة جامعها حافل ، وفي حله الحسن رافل ، إلا أن أرضها مستخلص السلطان بين الأوطان ، ورعيتها عديمة الأعيان ، مروعة على الأحيان ، وتختص شلوبانية بمزية البنيان ، ولكنها غاب الحميات ، غير أمينة على الاقتبات ، ولا وسيمة الفتيان ولا الفتيات [3] .

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات ابن الخطيب الأندلسي ، ص ص 49- 51.

[2] شلبونية : بلدة على ساحل البحر الابيض المتوسط ،تبعد بمسافة 16 كلم شرق المنكب ،وتعرف في الاسبانية باسم **salobena ?**تحيط بها الجبال من الشمال ،والغرب،وبها حصن الأندلسي من أهم الآثار الأندلسية،و يشرف على المدينة من الناحية الشرق من ارتفاع شاهق،وقد سقطت شلبونية في يد الأسبان في نفس العام الذي سقطت فيه المنكب اي عام 1489م،والى شلبونية ينتسب امام النحو الاندلسي ابو علي الشلبنين ت باشبيلية م "645ه-1247م"، ،مدينة صغيرة توجد الان قرب ولايتها ،واسمها يطلق عل نهر هناك ينبع من جبل الثلج **seiraa nevada**ابن الخطيب ،معيار الاخيار ،ص 97

[3] المصدر نفسه ، ص ص 97، 98.

23-الحمة : [1]

الصيد والحجل ، والصحة وإن كان معتبر الأجل ، وتورد الخدود ، وإن لم يطرقها الخجل ، والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبر كأنه قطع الذهب ، والحمة التي حوضها يفهق بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمت ثنيتها بالنسب إلى ثنية النعيم النعيم ، قد ملأها الله اعتدالاً ، فلا نجد الخلق اعتياضاً فها ولا استبدالاً ، وأ،بط صخرتها الصماء عذب زلالاً ، قد اعتزل الكدر اعتزالاً ، ولكن مزارعها لا ترويها الجداول ، ولا ينجدها إلا الجود المزاول ، فإن أخصب العام أحيا الطعام ، وإن أخلف الأنعام ، ملكت الناس بها والأنعام ، والفواكه بها الجلب ، وتزر عليها العلب ، وعصيرها لا يليق بالأكل ، ولا يصلح للحلب ، وبردها شديد وإن لم يقض به المنقلب [2] .

24-لوشة :

قال مرآى بهيج ، ومنظر يروق ويهيج ، ونهر سيال ، وغصن مياد وجنات وعيون ، ولذات لا تمظل بها ديون وجداول تتضح بها الجوانح ومحاسن يشغل بها عن وكره السائح ، ونعم يذكر بها ، المانع المانح ، ما شئت من رحا يدور ، ونطف تشفى بها الصدور وصيد ووقود ، وأعناب كما زانت اللبات عقود ، وأرانب نحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، إلى معدن الملح ، ومعصر الزيت ، والخضر المتكلفة بخصب البيت ، والمرافق التي لا تحصر إلا بعد الكيت ، والخارج الذي عضد مسحة الملاحة ، بجدوى الفلاحة ، إذ أن داخلها حرج الأزقة وأحوال أهلها مائلة إلى الرّقة ، وأزقتها قذرة ، وأسباب التطوف بها متعذرة ، ومنازلها لزائل الجند ، نازلة ، وعيون العدو لثغرها الثيب متغزلة [3]

---

[1] الحمة :هي **alhama**بلدة صغيرة تقع قرب مدينة بجانة من اعمال المرية ،وقد اطلق عليها العرب هذا اسم نسبة الى العين الحارة الموجودة بها،والتي هي مقصد كثير من ذرى والعلل والاسقام،كما يقصد السياح اليوم هذه المدينة للاستشفاء بعيهنا ،وما تزال بها الحمامات العربية والعين حتى الان هامش 1 المصدر نفسه ص124

[2] لسان الدين بن الخطيب ،معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص 124.

[3] – المصدر نفسه،ص127

25-أنتقيرة :

هي حالياً **Antequera** إحدى مدن الأندلس القديمة ، تبعد عن مالقة بحوالي 60 كم ، وهي عبارة عن حصون ما بين مالقة وغرناطة [1] .

محل الحرث والأنعام ، ومبذر الطعام ، والمرآة التي يتحلى بها وجه العام ، الرحب والسهل ، والنبات والطفل ، والهشيم والكهل ، والوطن والأهل ، ساحت الجداول في فحصها الأفيح وسالت ، وانسابت حيات المذانب ، في سقيها الرحب الجوانب ، وانسالت لا تشكو من بنو ساحة ، ولا تسافر إلا عن ملاحة ، ولا تضاهي في جدوى فلاحة ، وعظم ملاحة ، إلا أنها جرداء الخارج ، بل مارد ومارج ، وشدة خرجها فارج ، لا تضبطها المسلحة للاتساع والدرع الوساع ، قليلة الفواكه ، عديمة الملاطف ، والمفاكه ، أهلها أولو شرور وغرور ، وسلاح مشهور وقاهر ومقهور ، لا تقبل غريباً ولا تعدم من العدو تثريباً [2] .

26-قرطمة :

الكرك الذي يؤمن عليه الدرك ، وإن عظم المعترك ، جوها صاف ، في مثنى ومصطاف ، وتربها للبر مصاف ، وعصيرها بالكثرة ذو اتصاف ، إلا أن الماء بمعقلها مخزون ، وعتاد موزون ، وأهلها في الشدائد لا يجزون ، أيديهم – بالبخل – مغلولة ، وسيوف تشاجرهم مسلولة [3]

---

[1] ياقوت حموي ،الروض المعاطر في خبر الاقطار'تح احسان عباس 'طبع على مطابع هيدلبرغ'بيروت 'ط1 1975,ط2 1984 ' ج03، ص 259.

[2] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص 127

[3] المصدر نفسه، ص 128

27-رندة :

هي **Ronda** تقع غرب مالفة ، وقد كانت من أهم القواعد الأندلسية كما كانت من أهم مدن غرناطة ، وتعتبر الحصن الذي يحمي مالفة من ناحية الغرب ، وهي تشرف عل منطقة عالية من الربى ، ويشقها من وسطها وادي لبيب **Guada le bin** [1] .

كما وصف ابن بطوطة أثناء زيارته ، وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجلها ، ويبلغ سكان رندة حالاً أكثر من 35.000 نسمة ، فهي مدينة متوسطة الحجم ، ويغلب عليها طابع القدم والبساطة ، وعليها المسحة الأندلسية ، هذا وأهم المعالم والآثار الأندلسية الباقية بها أطلال القصبة الشهيرة ، والقنطرة العربية عند مدخل المدينة الغربي ، وهي ذات عقد واحد بالغ الارتفاع ، ثم الحمامات العربية ، وهي أطلال دراسة من حمامات أندلسية قديمة ، على مقربة من الكنسة العظمى ، وكذلك من الآثار " المنارة " في نهاية المدينة ، ويبلغ طولها حوالي 12 متراً ، والظاهر أنها من أيام الموحدين لشبهها بمآذنهم ، ثم قصر الأمير أبي مالك ، ويقع القصر في طرف المدينة الجنوبي ، وكذلك باب المقابر ، ويقع في حي فرانسيكو ، وينسب إلى هذه المدينة الفقيد ابن عباد الرندي [2] .

أم جهات وحصون ، وشجرة ذات غصون ، وجناب خصيب وحمى مصون ، بالزروع وضرع ، وأصل وفرع ، ومخازنها بالرمالية وأقواتها جديدة وبالية ، ونعمها – بجوار الجبل – متوالية ، هي بلد أعيان وصدور ، وشموس وبدور ، ودور آي دور ، وماء واديها يتوصل إليه في جدور محكم مقدور ، وفي أهلها فضاضة وغضاضة ، وما في الكلف بها غضاضة ، يلبس نساؤها الموق على الأملد المرموق ، ويسفرن عن الخد المعشوق ، وينعشن قلب المشرق ، وبالطيب

[1]- لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص 232.

2- المصدر نفسه ،ص 233

المنشوق ، إلا أن العدو وملوى ذبل بردها ، وعصب بنيانها ، وكيف السبيل إلى ردها ، وأضاق خارجها وخفض معارجها ، وأعلى طائرها ودارجها .

فلما بلغ هذا الحد ، قال : هل اكتفيت ؟ فقد شرحت صدرك وشفيت ، وبما طلبت منا قد وفيت ، يا بني كأني بالصباح السافر ، وآدهم الظلام النافر ، هذا أجفل أمام مقنبة الوافر ، وترك من الهلال نعل الحافر ، ونفسي مطيتي ، وقد بلغت الليلة طيّ ، وأجزلت عطيتي ، فلنجم بالحمص ، ونلم بالغمض ، وأبا بعد نزيلك ، أن سرني جزيلك ، وعديلك أن ضحك إلى منديلك ، وسميرك آن رواني نميرك ، فبادرت البدرة فضفضتها ، والصرة فافتضضتها ، والعيبة فنفضتها والمعادن فأفضتها .

ثم قال : نم في أمان ، من خطوب الزمان ، وقم في ضمان ، من وقاية الرحمن ، فلعمري وما عمري علي بهيّن ، ولا الحلف علي بمتعدن لو كان الجود ثمر لكنت لبابه ، أو عمرا لكنت شبابه ، أو منذرها لكنت بابه [1] .

فما هو إلا أن كحلت جفنى يميل الرقاد ، وقدت طرفة سلس المقاد ، وقام فيم الخان إلى عادة الافتقاد ، وبادر سراجه بالاً ، ونظرت إلى مضجع الشيخ ليس فيه الارتبر أطماره ، وروث حماره ، فخرجت لا بداره مقتفياً آثاره ، فكأن الفلك لفه في مداره ، أو خسفت الأرض به وبداره ، وسرت وفي قلبي – لبينه وذهاب أثره وعينه ، حرفة ، وقلت متأسياً : لكل اجتمع من خليلين فرقة [2] .

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ،ص ص 130-133.

[2] الصدر نفسه، ص ص 133- 134.

2 -تصوير ابن الخطيب لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية الأندلسية:

أ-الأعياد: كان الأندلسيون يحتفلون بالأعياد الإسلامية مثل باقي الأندلسيين ولكنهم كانوا كذلك يحتفلون بالمهرجان والنيروز غير أن أهم احتفال خلال حياة ابن الخطيب كان الاحتفال بالعيد النبوي وأول احتفال بالعيد النبوي قام به الغني بالله على طريقة المغاربة احتفال سنة 764ه إذ في هذا الاحتفال أقيمت أول مرة ساعة المناكبة التي اختص ابن الخطيب بوصفها هذه الليلة أما عيد الأضحى فنجد إشارته في شعره تبين الكيفية التي يتم عليها أما المهرجان فهو عيد فلاحي كان الأندلسيون يحتفلون به يوم 24 يونيو فقد كانوا يخلعون الثياب ويلبسون البيضاء فلا نجد في شعر ابن الخطيب أية إشارة للاحتفال بهذا العيد.

ب-الاحتفال بالحذقة: ويظهر من خلال وصف ابن الخطيب أن الأندلسيين كانوا يكتبون في لوحة الخانق وشعرا يقول: "وقلت مما يكتب في لوح حدق الأمير ولد السلطان قيس على العادة في مثل ذلك"[1].

ج-تصويره لبعض الآفات الاجتماعية:

الغزل بالغلمان: يظهر من خلال شعره أنه كان شائعا في عصره كما كان شائعا قبل عصره في الأندلس وغيرها.

تعاطي الحشيش: كان الأندلسيين أيضا يتعاطون الحشيش قبل زمن ابن الخطيب.

د- تصويره لمظاهر النعمة والترف:

مما كان شائعا في زمن ابن الخطيب وقبله كتابة الشعر على الأنبية والأشياء الجميلة لذلك نجده يقول شعر الكتيب في الحمالة وعلى السكين وعلى السور وعلى ضيقان الماء وفي أبنية المدارس وفي أبنية القصور كما نجد في شعره وصفا دقيقا لما بداخل القصر من زخارف وزليج مختلف الأشكال ومن صور[2].

[1]- لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ،المصدر السابق ، ص ص 81-83.

[2]- المصدر نفسه، ص 84-85.

ه- الألفاظ والأمثال العامية:

إن الأندلسيون أحسوا أحيانا بذاتيتهم وإنهم في استطاعتهم أن يأتوا المثيل ما أتى به المشارقة أو أكثر وأهم مظهر جميل هذا الشعور بالذاتية وشعر ابن الخطيب لم يخلوا من تضمين بعض الأمثال العامية، كغلق بيئته، وتقليدا للنموذج الذي سبق.

غير أن ابن الخطيب شعر لم يعكس كيف الطبقة الحاكمة فقط، فقد عكس الطبقة المسحوقة أيضا سواء في المغرب والأندلس، فقد عرف كل من المغرب والأندلس ظروف عدم الاستقرار ونتيجة عدم الاستقرار في المغرب هي انتشار الخوف وتفاحش الغلاء سبب تضاءل مواد المعيشة أما في الأندلس كان سببها المجاعة وانتشار وباء الطاعون.

قدم لنا ابن الخطيب صورة لبيئة الاجتماعية في كل من المغرب والأندلس بما فيها من إيجاب وسلب.

1

[1]- لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ،المصدر السابق ، ص ص 84-85

الفصل الثالث

الوصف الجغرافي للمدن المغربية في كتابات ابن الخطيب

أما بالنسبة للمدن المغربية ، فقد زار ابن الخطيب المغرب أكثر من مرة ، وفي كل مرة كان يتجول في البلاد ويتعرف عليها ، ويختلط بأهلها لا سيما رجال الإدارة والعلماء والخاصة ، ولابد أنه شافه الكثير منهم برغبته في الوقوف على معالم مدنهم وآثارهم واجتماعاتهم ، وكانت المعاينة لديه وسيلة هامة في وزن الحقائق ، وكشف الظنون ، وجلاء الشكوك [1] .

وإن كانت قد سبقت الإشارة إلى رحلة ابن الخطيب إلى المغرب الأقصى إلى أنه من الضروري الإيضاح هنا عن تأثيراته ، وتأثره خلال تلك الرحلة ،فلما وصل ابن الخطيب إلى المغرب لم يقنع بالإقامة في مدينة فاس عاصمة بني مرين ، كما كان حال سلطانه وبقية الحاشية اللاجئة معه ، بل قام بجولات علمية داخل المغرب الأقصى ، وقد اتسمت رحلة ابن الخطيب هذه بالوصف الجغرافي والملاحظات العفوية للأحوال الاجتماعية الخاصة والعامة ، فمن الأحوال الاجتماعية رصده لتقديم بعض المأكولات من قبل الوجهاء والأعيان ، ومن الأحوال العامة وصفه لصفات أهالي مدينة أغمات ونحوها [2] .

وقد كان من الطبيعي أن يختص لسان الدين ابن الخطيب الجغرافية شيء من الكثير الذي كتب ، فهذا الكثير لم يغادر ضرباً من ضروب العلم العربي إلا تناوله ، فكان من البديهي أن يكتب في الجغرافية والرحلات ، فإن الأولى كانت أخت التاريخ في الأندلس ، وأما الثانية فقد عاش ابن الخطيب عمره كله في رحلة وتنقل [3] .

وكان مغرما بالكتابات لا يكاد يدور في ذهنه خاطراً إلا أودعه الورق ، ومن ثم فله في وصف رحلاته أكثر من رسالة ، ونستطيع أن نحصي كتاباته الجغرافية فيما يلي:

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد ،المصدر السابق، ص 59.

[2] عبده بن محمد عواجي عبد القهار ، علاقات مملكة غرناطة في الدول الاسلامية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، ص 226.

[3] فراسيسكو دي أسيت مندت ، كاساريجو ، معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، 1963، 1964م ، مج 11-12ص ص 279، 280.

أ- المقدمة الجغرافية لكتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة .

ب- المقدمة الجغرافية لكتاب اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، وهو تاريخ سلاطين بني الأحمر في أيامه .

ج- رسالة خطوة الطيف ورحلة الشتاء والصيف .

د- رسالة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار .

هـ - وصف رحلة قصيرة في المغرب ضمّنه كتابه المسمى نُفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

و- مقامة مفاخرات مالقة وسلا .

وعلى هذا فكتاباته في الجغرافية والرحلات في أربعة أنواع : الوصف الجغرافي الخالص ، والرحلة الأدبية المسجوعة ، والرحلات العادية ، المقامة الجغرافية [1] .

كتابات ابن الخطيب الأدبية في الجغرافية والرحلات كثيرة ، وهي تتفاوت في طرازها الأدبي ، وخضوعها للسجع والزينة اللفظية ، أو تحررها منها ، ولكنها تشترك في صفة واحدة ، هي أن الغاية من كتابتها لم تكن بيان حقيقة جغرافية أو تاريخية ، وإنما عرض مهارة ابن الخطيب الأدبية والحقائق النافعة تجيء عفواً و ضمناً ، وهي في كثير من الأحداث تبدو لنا وكأنها حطام متناثر في ماء مضطرب فهي لا تجمع إلا في مشقة .

وهذه الكتابات الأدبية الجغرافية يمكن تقسيمها إلى ضربين " المقامة الجغرافية " و " الرحلة الأدبية "[2].

[1] . عبده بن محمد عواجي عبد القهار ، علاقات مملكة غرناطة في الدول الاسلامية ،المرجع نفسه ، ص ص 280، 297.

[2] حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافين في الأندلس ، ص 371.

كتب ابن الخطيب مقامات كثيرة ، ومن الطبيعي أن لا يجد صعوبة في كتابتها ، لأن هذا النوع من التأليف لا يتطلب من الجهد إلا البحث عن الألفاظ ، وكانت ثروة ابن الخطيب منها وافرة ، ولهذا فقد أجاد في هذا الباب وأكثر ، ولم يدع ضرباً من ضروب تأليف المقامات إلا تناوله ، فكتب مقامة الرحلة ، ومقامة المفاخرة ، ومقامة السؤال والجواب ، ومقامة القصة ، وهذه الثلاثة كانت فيما نعتقد أحسن أنواع المقامات وأقربها إلى نفوس القرّاء في تلك العصور ، ويهمنا من هذه المقامات الخطيبية هنا ثلاثة هي :

1- خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف .

2- مفاخرات مالفة وسلا .

3- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار [1] .

لقد سجّل ابن الخطيب كل ما رأته عيناه ، وسمعته أذناه في جميع هذه الرحلات ، فأعطانا بذلك مادة خصبة يرجع إليها الفضل الأول في كل ما نعرفه عن حضارة الغرب الاسلامي في تلك الفترة [2].

كتب ابن الخطيب في المجلس الثاني أي الصنف الخاص بالمغرب من معيار الاختيار عن ست عشر مدينة وقرية ، ومواد عنها أطول في الجملة من مواده عن المدن الأندلسية ,بلغ بمقياس بلاغة المقامات منها ، وهو يسرف فيها في المديح إلى درجة تختلط معها المعاني ويغدق البلد الصغير في أهمية الكبير لكثرة الكلام ، وعد تدقيق ابن الخطيب فيما يقول وسبب ذلك واضح ،

[1] عبده بن محمد عواجي عبد القهار ، علاقات مملكة غرناطة في الدول الاسلامية ،المرجع نفسه ، ص 572.

[2] ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس " مجموعة من الرسائل " ، ص 07.

فقد كتب هذه المقامة وهو في سلا تحت كنف سلطان المغرب وفي رعاية أهله ، ومن ثم فقد كان حقيقا بأن يتلطف ويمتدح ويبتكر المحاسن إذا لم يجدها [1] .

ويجوز القول كذلك أن اِحتمال الإقامة الدائمة في المغرب كان يراود نفس ابن الخطيب بعدما رأى من المحن في بلاد الأندلس ، ومن هنا فقد درس أحوال المغرب واستقصى وكتب هذه السطور مستجلباً لمحبة الناس وممهدا للعيش في أكنافهم [2] .

وفيما يلي نستخلص الحقائق الجغرافية من بعض المواد المغربية من هذه المقامة لكي يستطيع القارئ مقارنتها بالمادة الأندلسية ، مع ملاحظة أن ماسيذكر مستخلص من كلام كثير جداً معظمه لا ينطوي على معنى ذي بال ، كقوله عن سبيتة : [3] عروس المجلى ، وثبة الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من المحن في المرأة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ، وإذا قامت بيض أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنوبنش شهامة أزهارها ، والمارة منارة شوارها ، كيف لا ترغب النفوس في جوارها ، وتخيّم الخواطر بين أنجادها وأغوارها[4].

إلى الميناء الفلكية والمراقي الفلكية التركية الزكية غير المنزورة ولا الميكية ذات الوقود الجزل ، المعدّ للأزل ، والقصور المقصورة على الجدّ والهزل ، والوجوه الزهر الحسن ، المصون بها عن المحن دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحرب المناسبة ، والأسطول المرهوب ، المحظور الألهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب ، كرسي الأكراء والأشراف والوسيطة

[1] حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص 311.

[2] المرجع نفسه ، ص ص 311، 312.

[3] سبتة: هي **Seata** إحدى المدن الساحلية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمال المغرب ، ولكنها تتبع حاليا اسبانيا ، لها تاريخها عل مر العصور الوسطى الاسلامية ، من حيث كونها قاعدة سياسية هامة ،ابن الخطيب خطرة الطيف في رحلات الشتاء والصيف ،رقم الهامش 452،ص97

[4] أحمد المقري المغربي المالكي الأشكري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مكتبة زيدان العمومية ، 205 ، ط1، 302هـ /،ج 4 ص ص 27، 28.

لخامس أقاليم البسيطة ، فلاحظ لها في الإنجراف بصرة علوم ، اللسان ، وصنعاء الحلل الحسان ، وعمرة إمتثال ، فقال الله تعالى : **(إنّ الله يأمر بالعدل والاحسان)** [1]، الأمنية على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان ، وكفاها السكنى ببنونش في فصول الأرمان ووجود المساكين النبيهة بأرخص الأثمان ، والمفن المرحوم غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم والآثار المنبئة عن أصالة العلوم ، إلا أنها غافرة الأفواه في الجنوب للغيث المصبوب ، عرضة للرياح ذات الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب ، وناهيك عن بحسنته تعدّ من الذنوب ، فأحوال أهله رقيقة وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة ، واقتصادهم لا تكسب منه طريقة وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحاجم [2].

"ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير هاجم ، وراعي الجديب بالمطهر الساجم ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة الشك عندى في مكة والمدينة ، وقد سلك في هذه المدينة وصف بلدان المغرب بالسجع والتقفية ووفاها من المدح وضده أكمل توفية [3].

وإليك الحقائق الجغرافية التي يمكن استخلاصها من الفقرات :

[1] -سورة النحل ،الايات 90-94

[2] حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافين في الأندلس ، المرجع نفسه ،ص 285، 286.

[3] أحمد المقري المغربي المالكي الأشكري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج04 ، ص 28.

سبتة :

ميناء كبير ترسو فيه سفن كثيرة حولها غايات ممتدة ، يؤخذ فيها الخشب للوقود ، مركز قوافل وبحارة برية ومحصلة صيد لك سماك ، معتدلة الجو لأنها كما قال " الوسيطة الخامسة أقاليم البسيطة " ولكن أمطارها غزيرة ، ورياحها عنيفة مسمرة ثم إن أهلها معروفون بالتدبير الشديد[1] .

وفيها يقول الأديب أبو الحكم بن المرجّل من قصيدة طويل بديعة جداً مطلعها :

سَلامٌ عَلَى سَبِيْتَة المَغْرِبْ أَخِيَةَ مَكَةَ أَوْ يَثْرِبْ .

وفي مدحها يقول أيضًا رحمه الله :

أَخْطِرْ عَلى سَبْتَة وأُنْظُرْ إلى جَمَالِهَا تَصْبُوا إلى حُسْنِهِ .

كَأَنَّهَا عُودُ غِنَاءٍ وَقَدْ أُلْقِيَ في البَحْرِ عَلَى بَطْنِهِ .

وقال الحجازي في المسهب : " أول من سكن بر العدوة ، ويراك الأندلس من ولد نوح بع الطوفان ، تنبئت وأندلس ابن بافث بن نوح ، فنزل سبْتُ في آخر المعمورة من بر العدوة ، وبنى له منزلاً في موضع سبتة ، فدعيّت باسمه وتناسلت منه قبائل البربر ، واتسعت في بر العدوة إلى أن بلغت إلى فلسطين ، وكان ملكهم يسمى جالوت ، وكان مجوسي ، وهزمه طالوت ، قتله داوود ، فانضمت البربر عن فلسطين ، وعن الديار المصرية ، واقتصرت من برقة إلى آخر المعمور ، وسكن أخوه أندلس مقابلاً له في إنتهاء المعمور فعرفت باسمه [2] .

[1] معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ص 312.

[2] شهاب الدين بن محمد المقري التلمساني ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ص ص 29، 30.

2- وصف ابن الخطيب لمدينة باديس :

قال : بدأ تجمدلة الرقعة ، وبركة البقعة ، ومدفن الولى ، ومظهر النور الجلي ، والنحر غير العاطل ، ولا الخلى من الحلى ، بلد السّراوة ، فالشجاعة والإيثار على فرض المجاعة ، فالنفوس الأوابة إلى الله الرجاعة ، حيث البر والحوت ، وفالخشب الذي ينشأ منه كل منحوت ، والبأس والإقدام ، والفاكهة الطيبة ، والآدام ورب الجبال ، وفضل المدافعة لصهب السيال ، إلا أنها موحشة الخارج ، وعرة المعارج ، مجاورة غمارة بالماء والمارج ، فهم ذو دبيب ، في مدايح تلك الغرابيب ، ولكيدهم ببركة الشيح في تثبيت [1] .

3- مدينة طنجة : قال : المدينة العادية ، والبقعة التي ليست بالخبيثة ولا بالردئية إليها بالأندلس كانت نسبة المتعاربة ، والكتائب المحاربة ، والرفق السائحة في الأرض الضارية يورها ليس بملثوم ، وساكنها غير ملوم ، وفضلها معلوم ، ودارها ليست بدار لؤم ، ميدان أفراس كبير ، ومعدن هند وذكير ، مثلت بين المنار والقالة ، وحكّمها في التفضيل فأشكل الحكم وتعذرت المقالة ، ولم يصّح البيع ولا وجبت الإقالة ، هذي سماء بروج ، وهذي أزمار مروج ، وكلاهما مركب سرور وسروج، ومتمتع فروج ، ومطعم قديد ومروج ، ديارها نبيهة ، وأحوالها بأحوال جارتها شبيهة ، لكن رملها يحشو العين بالنذور عند المرور ، ويدخل الدور ، ومغرب الشموس والبدور ، وعين برقائها ، أعذب عيونها ، مشهور بتقليد الهوّج ، قرآن عنه الناس غير ذي عوّج ، ويذكر أن سليمان اختصها بسجن مردة الجن ، فيعثر بها على أوانٍ ملئت ريحاً تثير تبريحا وسيندون لذلك إفكا صريحاً [2] .

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ،المصدر السابق ، ط01، ، ص ص 47، 48..
باديس : مدينة اندثرت في أواخر القرن السادس عشر ميلادي ، حيث حاربها الاسبان ، ويقال لها " بديسة " و " باديس عمارة " كما يقال لها " البادس خاص " تمييزاً لها عن " بادس الزاب " الواقعة بالجزائر ، ثم أولى تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وتبعد عن الحسيمة بنحو 40 كلم ، المصدر نفسه، ج01 ، ص 143 .

[2] ابن الخطيب ،مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ،المصدر السابق ، ص 103.

4- قصر كتامة :

قال في وصفه مغرّد عندليب ، وعنصر برّ وحليب ، ومر على سائمة غائبة ، "ومسرح بهيمة في الجحيم هائمة ، ومسقط مزنة عائمة " ، وديمة دائمة ، وبه النقاح النّفاح ترتاح إلى شمه الأرواح ، يغدق إليها المسا والصباح ،، ويتفنن فيه الحرام والمباح ، والسّمك كما جردت الصّفاح إذا انستجن الكفاح وطريقة مسلك القافلة ، وببابه الشؤون الحافلة ، ينسل إليها من غُمارة ، قرود ، وفهود وأمة صالح وهود ، ذلك يهم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، إلا أنّه قدر تهدّم ، ودار الندوة لام ملتم ومثير الهائج الموّار ، وثائر الدّم جثم ، هو الخبيث في بطيحته تربص ، وانبسط وما انقبض ، وجبر لله عسكر البعوض الهاجم ، دربة يمض المعاجم ، وأما وحلة ، فلا يعبر ولا يسير ، وإن أسهبت العبارة والأمر أكبر [1]

طنجة : **tanger**مدينة قديمة معروفة بالمغرب الأقصى ، وتقع على المحيط الأطلسي ويفصلها عن أوروبا مضيق جبل الطارق ، الهامش 456 ، لسان الدين ابن الخطيب ، خطرة الطيف ، ص 99.

قالة : وبالاسبانية **lacala**لها معالم كثيرة مختلفة ، قد سبقهم منها هذا المعنى الخاص ، ميناء أو خليج ، راجع : **Dozy Supplement ..11.p 296.** ، الهامش 456 ، المصدر نفسه،ص 99.

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس ، المصدر نفسه، ص 100.

قصر كتامة : ويسمى اليوم القصر الكبير ويسمى أيضًا قصر عبد الكريم ، وهو بلدة معروفة في المنطقة الشمالية بالمغرب الأقصى ، وتبعد عن سلا المحيط الأطلنطي ، بنحو 36 كلم ،المصدر نفسه ، ج01 ، ص الهامش 457 ، ص 100.

المزن : السحاب أو ذو الماء منه ، و المزنة القطعة من المزن ، الهامش 458 ، المصدر نفسه، ج01، ص 100.

الدكية : مطر يدوم في سكون بلا رعد ، ولا برق ، وجكعها ديم ، وديوم ، يقال : مطرتهم السماء بوكيّة وبديم .

غمارة : اسم لقبيلة بربرية ويطلق أيضًا عل الجبال التي تقيم فيها ، 461، المصدر نفسه ،ص 100.

5- مدية أصيلا :

قال كثيرة المرافق ، رافعة في الخصب اللّواء الخافق ، العصير الأثير ، والحوت الكثير ، والبّر الغزير ، والإدام الذي يرمي به من حكم عليه بالتّعزيز ، والسفن المترددة ، وفيها الملد الأبازير ، إلا أنّها حصنها من المنعة يرى وساكنها بربري وجارها من غمارة جرى [1] .

6- آنقا :

قال جون الحط والأقلاع ، ومجلب السلاع ، تهدى إليها السفن شارعة ، وتثبيتها متسارعة ، تصارف برّها الذهبي بالذهب الابريز ، وتراوح برّها وتعاديه بالتبريز [2] .

7- آزمور :

قال جار واد وريق ، وعروس ربيع وخريق ، وذو وضع شريف ، أطلّت على واديه المنارة والمراقب ، كأنهما النجوم الثواقب ، وجلّت عن خصبه المناقب ، وقمين المرافق نهره المجاور وبحره المصاقب ، بلد يخزن الأقوات ، وتهليلاً اللّاهوت باطنه الخير وأمامه اللّحم والطير ، وساكنه رفيه ، ولباسه يتّخذ فيه ، ومسكنه نبيه ، وصوته الشابل ليس له شبيه ، لكن أهله إنما حرثهم وحصادهم اقتصادهم ، فلا يعرفون إرضاخاً ، ولا ورداً نضاجاً ، يترامون على حبة الخردل بالجندل ،

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، تح: محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، ط01، 1401هـ / 1981م ، ج2 ،ص 307.

أُصَيلا : بضم الألف وفتح الصاد ، أو بفتح الألف وكسر الصاد ، وبالاسبانية **Arcila** مدينة على ساحل المحيط الأطلنطي بالقرب من مضيق جبل طارق ، 462 ، لسان الدين ابن الخطيب ، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس ، ص 100.

[2] لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، المصدرالسابق ، ص 106.

آنقا : مدينة كبيرة على ساحل المحيط الأطلنطي بالمغرب أقصى وتقع على مسافة 60 ميلاً شرقي آزمور فهي مشهوؤة بمنتجاتها الزراعية ، وكانت تنافس ثغر قادس البرتغالي ، ونتج أم دمرتها الأساطيل البرتغالية عام 1406هـ ثم أعيد بناؤها سنة 1515 ، الهامش 469 ، المصدر السابق، ص 102.

ويتضاربون بالسيوف على الأثمان والزيّوف ، بربري لسانهم كثير حسناتهم ، قليل إحسانهم ، يكثر بينهم بالعرض الافتخار ، ويعدم ببلدهم الماء والملح والفخار [1] .

8- تيط :

قال معدن تقصير وبلد بين بحري ماء وعصير ورباط للأولياء به سرور واغتباط ، ومساجدها تضيق عنه المدائن مناراً عالياً ، وبقلادة الأحكام حالياً ، إلا أنّ خارجها لا يروق عين المقيم والمسافر ، ولا يتشوق بحسن سافر ، ومؤمنه شقي بصداع كافر ، وحماه عدو كل خق وحافر ، فلولا ساكنه لم ينسب يوم فخر ، ولم يتم إلا إلى صخر .

9- آسفي :

قال لطف خفّي وجناب حفي ، ووعد وفّي ، ودين ظاهره مالكي ، وباطنه حنفي ، الدمائة والجمال ، والصبر والاحتمال والزهد والمال ، والسذاجة والحلال ، قليلة الأحزان صابرة على الاختزان ، وافية المكيال والميزان ، رافعة اللّواء بصحة الهواء ، بلد موصوف ، برفيع ثياب الصوف ، وبه تربة الشيخ أبي محمد صالح ، وهو خاتمة المراحل لمستورات ذلك الساحل ، لكن ماء قليل ، وعزيزة المادية من يواليه ، من الأعراب ذليل [2].

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ،ريحانة الكتاب ، المصدر السابق ، ص 309.

آزمور : مدينة على ساحل المحيط الأطلنطي بالمغرب الأقصى ، وتقع على الضفّة اليسرى لمصب نهر أم الربيع ، راجع :ابن الخطيب ، خطرة الطيف ، الهامش 471، ص 103

[2] المصدر نفسه ،ص ص 103 ، 104.

تيط : مدينة قديمة في إقليم دكالة تقع على ساحل المحيط الأطلنطي على مسافة 24 ميلاً من مدينة آزمور وعلى بعد 10 كلم جنوبي مازكان الجديدة الحالية ، وتيط معناها العين بالبربرية ومنها تطوان أي العيون السبعة ، راجع الصدر نفسه، الهامش 472، ص 103.

آسفي : مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل المحيط الأطلنطي هذا وقد ورد سبب تسمية هذه المدينة بهذا الاسم في قصة الفقيه المغربي من أهل لشبونة حينما دخل بهذا المكان قال زعيمهم وأسفي ، وسمي المكان إلى اليوم آسفي ، الهامش 473، المصدر نفسه، ص 103.

وجئنا إلى رباط الشيخ أبي محمد وهو من المشاهد الحافلة ، والمآلف الجامعة ، فضاؤه رحب مرصوف بحجر الكتان يدور به ، سقيف نضيف ذو أبواب تفضي إلى زوايا ومدافن ، وبطوله عن يمين الوالج مسجد الصلاة وتربة الشيخ في بيت عُمِدَ سَمْكُهُ لا نفساح عرضه ثقابهم من الخشب ، وقبر الشيخ قبلية عن يمين الداخل إليه ، قد اتّخذ له حوض من الخشب من الرفيه أكسبته الأيام دهمه ، فتخاله منحوتاً من الألوة قد امّلست من الاستلام حافته ، وسوى من نظيف الرمل نسيجه ، وبإنائه قبور شبيهة به في الشكل لولده وحفدته ، تتخللها الحصر النظيفة ، فقضى الغرض من القراءة والباء ، وحضر الفقهاء والطلبة والصوفية ، وقد استعرضهم أبو العباس طائفتين ، ورتبهم للسلام علينا غابطاً إياهم مطرباً مؤنساً ، فدعوا وأجملوا ، وعرض علينا طعام الشيخ أبي محمد رحمه الله ، وقدى ضيفه الجاري عليه من بيت المال لنظر حافده المذكور محكمّا في قلّة وكثرّة ، فيجلب خوان بها اشتمل قوره على كل غضارة أثيرة لا تتخلف عن طعام وشراب .

ومن ساعة إلمامنا انزوى عن الشيخ أبو العباس متروك للهوه ، واشتغل زعموا بعقد نكاح على بكر يلاعبها وتلاعبه ، لم يقسم الله للضيف ومن مأدبتها محط ، وشيخ بإيناسه وتردده ، فحدسنا في ذلك إبقاء على نفسه لّما تكشف المجالسة عن حال يمد بها أبو حنيفة رجله ، وهممت أثناء طريقي أن أخاطبه بسعوط أفتتحه بأبيات مطلعها :

إِذَا لَمْ تَهْدِ بِكَ الأُبُوَةُ والحَجُّ فَأَنتَ عَلَى فُوبِ الحِمى تَمرٌ فَجٌ .

ثم تصدقت على حلم الشيخ بجهله ، وحرّمت صيّد يده في حرم محله ، وأصلحنا الله وإياه [1].

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ، المصدر السابق ص ص 147، 148.

السوس الأقصى : وهو الجزء الممتد من جبال الأطلس حتى رمال الصحراء ، جنوباً والسوس الأدنى يقع في شمال السوس الأقصى و لم يتفق الجغرافيون على تحديد مكانه . الهامش 04 ، راجع : ، المصدر نفسه ،ص 148.

وصلينا بمسجدها الجامع وهو مبنى عتيق ، ومجمع فسيح متعدد الزيادات والصحون ، فالتعاريج ، سبق منه ما بين يدي المحراب بعض على أيدي قوم من الصالحين ، رفعها بها عمداً تناهز الأربعين ، بادية ضخمة خشنة على سبيل من الجفاء والسذاجة يباشرها سقف لاطئ من غير نقش ، ولا إحكام علتها خُشب بالية ، وقُضُب فاخرة ، مما يدل على قدم العهد ، وينبئ على اجتناب فضول العمل ، فلم تمتد إلى تغييرها يد ، ودارت بها الزيادة النبيهة والبلاطات من جهاته ، وبصحن هذا المسجد حباب للماء بناها الناس لسقيّهم ووضوئهم فيحسبهم ويقابل القبلة من جوف الصحن ، زاوية بها فقراء يبغون ذكر الله ، فيعاطون مقام التّوكل ، فلا يغب عنهم التفقه .

وبهذه البلدة المدرسة والمارستان ، وعليها مسحة من قبول الله ، وهواؤها أطيب أهوية البلدان ، يستدعى الدثار في القيظ لبرءه ، ولطيف مسراه ، وترددها صاحب السوق ومقيم رسم المارستان الشيخ أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الحريري ، من أهل الظّرف والحرية والتّمسك بأذيال أهداب الطلب حسن الحظ ، جميل العشرة ، خفيف في سبيل المشاركة نشأ بالخضراء وحضر حصارها وحجّ وخدم الصاحب بدمشق فأحظاه [1] .

10- مكناسة الزيتون :

قال مدينة أصيلة ، وشعب المحاسن وفضيلة ، فضلها الله ورعاها وأخرج منها ماءها ومرعاها ، فجانبها مريع وخيرها سريع ، ووضعها له في فقه الفضائل ، تقريع عدل فيها الزمان ، وانسدل الأمان ، وفاقت الفواكه فواكهها ولاسيما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ، ولطف فيها الأواني والكيزان واعتدل للجسوم الوزان ، ودنا من الحضرة جوارها ، فكثر قصادها من الفضلاء وزوارها وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الأبهة والهاء ، والمقاصيد والابهاء ، إلا أنها طينها ضحضاح ،

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ، المصدر السابق ص ص 148، 149.

الخبيرة الخضراء : وهي بلدة صغيرة بجنوب إسبانيا ، وتعرف اليوم باسم **Algeerias** ، المصدر نفسه،هامش رقم 1 ص 149

لدى الطرق فيه إفتضاح ، وأزقتها لا يفارقها القذر وأسواقها يكثر بها الهذر ، وعقاربها لا تبقي ولا تذر ، ومقبرتها لا يجنح عن إهمالها ولا يعتذر [1] .

ويقول وأطلّت مدينة مكناسة الزيتون في مظهر النجد رافلة في حلل الدوخ مبتسمة عن شتب المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المراد ، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى قيد النّص ، وفذلكه الحسن ، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً من بلد دارت به المواسم المغلة ، والتفت بسوره الزياتين المفيدة ، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمى إليه الطرف ، ورحب ساقه والتفاف شجره ، ونباهة نبيّه ، وإشراق ربوّه ، ومثلت بإزائها الزاوية الغنمى المعدة لنوادر ذات البركة النامية والمئذنة السامية ، والمرافق المسيّرة يصاقبها الخان البديع المنصب الحصين الغلق الخاص بالسنابل والجواية في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى ، تقابلها غرب الزاوية الحديثة المربية برونق الشيبة ، ومزيّة الجدّة والانفساح ، وتفنن الاحتفال ، إلى أن قال وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلية الهمم ، وأخذها التنجيد فجاءت فائقة الحسن ، ما شئت من أبواب نحاسيّة وبرك فيّاضة تقذف فيها صاف الماء أعتاق أسدية ، وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين ، وبفضل هذه المدينة كثيراً من لدانها نصيحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه ، وتعمير الخزائن ومداومة البّر بجوار ترابها سليماً من الفساد معافى من العفن ، إذ تقام ساحات منازلها غالب على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث ويصحبها التعمير وتتجافى عنها الأرض [2] .

ومحاسن هذه البلدة المباركة قيّمة ، قال ابن عبدون من أهلها ولله دره :

أنْ نَفقخْن فاسَ بمَا فْي طِينِها فَكأنَّها فْي زيبْها حَسْنَاءُ

يَكفِيكَ منْ مِكنَاسَةِ أرجَاؤُها والأطْيبَان هَواءُها والمَاءُ .

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، المصدر السابق، ص ص 165، 172 ،

[2] أحمد المقري المغربي ، نفح الطيب ، ج04، ص 27 .

ويسامتها شرقاً جبل زرهون المنبجس العيون ، الظاهر البركة ، المتزاحم العمران ، الكثير الزياتين والأشجار ، قد جلله سكراً و زرقاً حسن ، فهو عنصر الخيل ، ومادة المحي ، وفي المدينة دور شبيهة وبني أصيلة ، والله سبحانه وله من اشتملت عليه بقدرته ، وفيها أقول :

بالحُسنِ منْ مِكنَاسةِ الزَيتوُنِ قَد صَحَ عُذرُ النَّاظِرِ المَفْتونِ
فَضلُ الهَواءِ وصِحَة الماءِ الذِي يَجْري بِها وسَلامَة المَخزُونِ
سَحَت عَلَيْها كُلُ عَينِ ثَرةِ للمُزنِ هامِية الغَمَام هُتونِ
فاحْمرَ خدُ الوَّردِ بْين أباطِح وافْتر ثَغرُ الزَهْر فَوق غُصُونِ
ولقد كَفاها شَاهدُ مهما أبْغت قَصَب الساق القرب من زَرهَفِ
جبل تضاحكت البروج نَجْوَه فبكت عذاب عيونه بعيون
وكأنّما هو بربري فاقد في لوحة والتين والزيتون
حُييْت من بلدٍ خصيبٍ أرضُه مَثْوى أمان أو مناخ أمونِ
وُضعت عليكِ من الإله عناية تكسوك ثوبَي أمنة وسكونِ .

وصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع ، مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القراب، وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال :

مكناسة مدينة أصيلة ، وشعب المحاسن ، وفضيلة فضلها الله تعالى ورعاها ، على أن ضواحيها كانت في زمان لسان الدين مأوى للمحاربين واللصوص ، ومثوى للأعراب الذين فضل دواؤهم بأقطار المعرب على العموم والخصوص ، ولذلك يقول لسان الدين رحمه الله تعالى :

مكناسة حثرت بها زمرا العدا فمدى بريد فيه ألف مريد .
من واصل للجوع لا لرياضة أولابس للصوف غير مريد
فإذا سلكت طريقها متصوف فانو السلوك بها على التجريد [1].

[1] احمد المقري، نفح الطيب،المصدر السابق ،ص ص 27 ، 29.

11- جبل هنتاتة :

في هذا الجبل يصف ابن الخطيب المكان الذي توفي فيه السلطان المريني ، بعد أن ثار عليه أبو عنان فارس ، كذلك يصف معيشة شيوخ قبيلة هنتاتة وأنواع المآكل والمشارب التي قدموها له ، وهو يصف على جانب كبير من الأهمية [1] .

يقول على الصعود إلى الجبل المطل عليها ، والجارح المرفوف على دراجها مقتصرين على حدود هنتاتة ، عنصر الدعوة ، وأولياء الدولة المرينية ، وحلفاء الطاعة المخصوصين برعي الجوار ، والاستماتة من دون الحرمة ، ، وشد عروة الوفاء ، وسد الخلّة ، واستحقار الشفوق على غيرهم والمزيّة ، إذ كان ذلك أقوى بواعث الوجهة ، وأخلص مقاصد الرجال .

وقدمت بين يدي وصولي إلى مراكش المخاطبة إلى عميد تلك البقعة وشاه تلك الرقعة صدر هذه الحدود القصوى ، المتميّز بالرجاحة والرأي والسياسة ، المتفق فيه على إفاضة العدل ، وكف اليد ، والتجافي من مال الجباية ، والمستأثر بجهد الجمهور من الرعيّة ، وحده أولى العفاف والخيرية ، إلى النبل الذي لا يبطش نبله ، والإدراك الذي لا يقل حدّه ، والدهاء الذي لا يسبر غوره ، والمعروف الذي لا يتجاوز محال الضرورة حكمته ، عامر بن محمد بن علي الهنتاني بما نصه :

تقول ليَ الأظعان والشوق في الحشا له الحكم يمضي بين ناه وآمر
إذا جبل التوحيد أصبحت فارعاً فخيم قرير العين في دار عامر
وَزُرْ تربها المعصوم إن مزارها هو الحجّ يمضي نحوه كل ضامِر

مكناسة : أو مكناس اتخذها المولى اسماعيل عاصمة له " 673 ، 1726 " وطبعها بطابع عبقريته ، تقع جنوب غرب فاس على مسافة 60 كلم ، وقد سمين باسم قبيلة مكانسة البربرية التي اختطت المدينة له ، ويحيط مكناس نطاق مثلث من أسوار وحصون يبللغ طولها 40كلم ، من آثارها العتيقة باب القصور ، والاسطبلات القديمة ، و بركة الصناديق ، وتعتبر مكانس اليوم خامس مدن المغرب سكاناً ، ويبلغ تعداد سكانها حاليا حوالي 230 ألف / ن . لسان الدين، معيار الاختيار ، المصدر السابق ،رقم هامش 111،ص 165

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ، المصدر السابق ،ص 19

سنلقى بمثوى عامر بن محمد ثغور الأماني من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهة ولله ما تلقاه من يُمن طائر
وتستعمل الأمثال في الدهر منكما بخير مَزُور أو بأغبط زائر [1]

لم يكن همي أبقاك الله ، مع فراغ البال ، وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام والليال ، إذ الشمل جميع ، والزمن كله ربيع ، فالدهر مطيع سميع ، إلا زيارته في جبلك الذي يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ، وإن رأى الأفق الذي طلعت منه الهداية ،وكانت إليه العودة ومنه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية ، فلما حمّ الواقع وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الواقع وأصبحت ديار الأندلس وهي البلاقع ، وحسنت من إستدعائك إلى المواقع قوى العزم ، وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسي السفر بسببك ، فألقيتك حفيفاً ، والتمست الإذن حتى لا ترى في قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند العزم مقذوح ، والله تحقيق السول ، ويسهل بمثوى الأصائل المثول ، ويهيء من قبيل هنتاتة القبول بفضله .

فأكرم الوقادة ، وأطرأ بين يدي الإمارة ، واستدعى من محل سكناه بمراكش إلى دار الكوامة ، ويشرك في الطعام نبهاء الدولة وعليّة الخاصة ، وأطرف من استخلاء منزلة بقرة العين ، انفساح خطة ، والتفاف شجرة ، وجرية ماء ، واستبحار بركة ، واستكثر من كل طرفة ، ونقل من جلسته إلى جلسته ، وحرص على تتميم اليد بكل حيلة .

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02، ص ص 43، 44.

هنتاتة : بكسر الهاء وفتحها ، وبسكون النون ، وفتح التاء الفوقية ، بعدها ألف ممدوة ثم تاء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث " التعريف بابن خلدون ، رحلته غرباً وشرقاً ص 37 حاشية 1، و هنتانة اسم يطلق على جبل من جبال أطلس ، كما يطلق على القبيلة المقيمة فيه ، ولقد لعبت هنتاتة دوراً كبيراً أيام الموحدين وبني مرين ، راجع : لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ،هامش رقم 1 ، ج02 ، ص 43.

الشفوق : بمعنى السمو ، المصدر نفسه ،الهامش 02، ص 43.

وفي الاثنين المتصل بيوم القدوم ، توجهنا إلى الحيّل في كفف أصحابه تحت إغراء برّه ، وفي مركب قرّة عينه ، فخرجنا نستقبل بين يديه السهل ، نسيان الجبهة ، ونشاهد الآثار ، ونتخطى المعاهد وننشق والنسيم البليل القريب العهد بمادة الثلج ، و عنصر البرد ، ولما بلغنا سفح الجبل ، وانتحينا طريقه من السفح ، وهي تركب صفة الوادي الملتقة بعادي شجن الحور والطرفاء ، وشد الخلاف والدرعار ، وأمعنا وكابدنا عنتا في اقتحام الوادي ذي الجرية الكثيرة الصعبة [1] .

ولما كدنا أن نختم عدد نوب المجاز وتأبى على عفته ، تلقتنا الخيل راكضة أمام اليحسوب المتبوع عبد العزيز بن محمد الهنتاتي ، صفوة وحافظ سقيّته ، وقسيمة في قعساء عزته ، الحسن الوجه ، الراجح العقار ، النبيه ، المركب ، الملوكي البزة، الظاهر الحياء ، المحكم الوخط ، إيثاراً للحشمة واستكثاراً من هواء النخلة ، على الفناء والجدة ، فرّحب وأسهل ، وارتاح واغتبط ، وألطف وقدّم ، وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه ، المستندة إلى سفح الطود ، وقد هيأ ببعض السهل ، الموطأ للاعتمار بين بيتاً من المضارب كل حسان العماد ، يعيد الطيّب ، سوى القامة ، مقتر التفاصيل ، ببديع النقش و الصنعة ، ظاهر الجدّة ، مصوف عن البذلة ، يظلل من مراتب الوطاء الرفيع ، ولحف الحرر ومساند الوشى ، واقطاع من عفر الجلد ، ما تضيق عنه االقصور المحججة ، والأبهاء المنضدة ، ولم يكن يقر القرار ، ولا تنفع الخفاف ، حتى غم من الطعام البحر ، وطما الموج ، ووقع البهت ، وأمّل الطحى ، ما بين قصاع العشيرة أفعمها الثرة ، وهيل بها السمن ، وتزاكيت عليها لعمات الحملان الأعجاز ، فأخوته تنوء بالعصبة اقلى القوة ، غاصة من الآنية بالمذهب والمحكم ، مهديّة كل مختلف الشكل ، لذيذ الطعم مهان فيه عزيز التابل ، محترم عند سيّدة الأحامرة الثلاثة إلى السمك الرضراض والدجاج فاصل أصناف الطيار .

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج 02 ، ص ص 44، 45.

ثم تتلوها صحون نحاسية تشتمل على طعام خاص من الطير والكبّاب واللقالق [1]، يقع منها بعد الفراغ إلمام ذلك الرشيب في نفر من خاصة ما يدل على اختصاص ذلك بنفسه [2].

يتلو ذلك من أصناف الحلواء ، بين مستبطن للباب اليُم ، ومعالج بالقلو ، وأطباق تفخر الفاكهة وأوعية العود المحكم الخلق ، المشتملة على مجاج الشهد ، قد قام السماط من خدام وأساودة أخذتهم الآداب وهذبتهم الدربة ، وتحققت منهم الحركة ، وسكنت الأصوات ، واشمرت الأذيال ، فقد اعتتم من الآنية النحاسية للوضوء والوقود كل ثمين القيمة ، فاضل أجناسه في الطيب والأحكام والفخامة .

ولم يكد يفرغ من الأكل إلا وقد جنّ الليل ، وتلاحق من الطعام السيل عربياً على ما تقدم بالدوية وإنفساح زمان الاحتفال ، وتفتن أصناف الحلواء . [3]

تغدى و عسيلتها إلى السكر ، وكان السهر والمجالسة في كنف لألاء الشموع لضحكات فوق المنصات النحاسيّة ، والأنوار اللاطونية ، فاستعيد الكثير من تاريخ القطر وسيره ، وخبر لجأ السلطان المقدّس أمير المسلمين أبي الحسن إلى التفقه ، والتحرم بمنبع وعر جواره على تفئة هيض جنامه ، وثيرة أثيرة عميد العساكر منه ، وإطراق العيون عند نجدته ، وتصام المسامع عندها استغاثته ، فقد خذل النصير ، وذلت الأقدام ، وساءت الظنون ، وما كان من إجابة هذا الندب عبد العزيز لندائه ، والتبجح بمنعة حليه ، ووقور عدته ، وأصيل وفائه ، واستصحابه إلى مقر أهله ومفزع ولده ، ودفاعه عنه بنفسه وقبيله ، يرتضاه شغير ما تناله الأيدي بالسهل من نعمته ، فعادت قاعاً صفصفاً مرأى من عينه ، فحاثت فيها ألسنة النار بأرض البوار عن طيب نفسه ، حتى

[1] **اللقالق** : اللقلق هو طائر طويل العنق والرجلين يوصف بالذكاء والفطنة ، لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج 02 ،الهامش 01، ص 47.

[2] المصدر نفسه ،ج 2، ص ص 45، 47

لكادت الكرة أن تناح ، والدولة أن تؤول ، والملك أن يثب ، والعثرة أن يقال لها لّما ، لولا طارق الأجل الذي فصل الخطة ، وأصمت الدعوة ، ورفع المنازعة ، ليتوفاه الله بين السحر والنحر ، والأنف والعين ، واستأمن من بعده من كان خلص الليلة من خدامه ، وانحدر طوعاً بين يدّي سريره ، وأبقى محل وفاته مرّفها عن الاقتبال بالسكنى ، مفترشاً بالحصباء ، مقصوداً بالابتهال والدعاء ، فتخلفها إلى منقبة شماء ، ومأثرة بلغت ذواتبها أعنان السماء ويداً على الخلق بيضاء [1] .

ومن الغد كان التوجه إلى ذلك المحل المبارك فاقتحمنا وعراً نزل فيه الذر ، ولا يسلكه مع الحلم الطيف وتنسمنا شعاب تعجز عنها العصم ، وتجاوزنا مهاوي مدت فيها أسواط من الخشب ترتفع عند الضرورة الفادحة ، فتقطع عمن وراءها الآمال إلى أن أفضيت ، ولم نكد إلى المحل المقصود ، وهي دار قوراء شبيهة البنيّة بالنسبة إلى حسنها ، شاذجة ملطخة الجدران بالطين الأحمر ، متقابلة الأشكال بيوتها لاطية السقف غير مهذبة الخشب ، بأعلاها عزف من جنسها يدون بداخلا برطال مشتعل على أرجل متخذة من اللّبن ، فالحجر ملتبس بالطين ،والبيت حيث متوفى السلطان مقدوش بالحصباء ، قد ترك فيه دائرة كالقصة تباشر الثرى ، وتمكن من تربته من يقصد شفاء المرضى وكحل عيون المهى ، إذ كان رحمه الله آخر ملوك العدل نشأة ، لم تعرف الخبائث ، ولا آثرت الملاذ ، مغنياً في برّ والديه مصرّف في انفساخ الفكر الحكيم بين يديه ، محافظاً على الصلاة قيوماً عليها بالليل ، كثير الصدقة والصوم ، مجالس للعلماء ، متكشف أحوال الرعايا ، جانب على الضعفاء ، معملاً في سبيل الله بيض الظبا ، صابراً على الأواء ، محتسب في البلوى ، مستشعر اشعار التقوى ، ألحقه الله بالتوفيق الأعلى ، وبإزائه مصراع باب غسلت عليه جثته الزكيّة ، لا تتمالك العين أن تنتثر سلوك دموعها ، ولا القلوب أن تأخذ الحسرة يكظمها لما عضّ ذلك الملك الحلالحل من الخطب الذي عوضه من نضرة النعيم ، ووجوه الغرانقة الغر ، والتوكؤ على النمارق المصفوفة ، والزرابي المبثوثة ، في التبوأ الكريم ، وانتقال طلعة البدر ، واستجفاء هبّة

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص ص 47، 48.

النسيم ، بقنن الجبال الغر، وسكنى المحل الخسف ، ومفارقة الأهل و الولد عند فراق الروح للجسد ، جعلنا الله من الدنيا على خلال وتوق ، *وكتبنا ممن قدر قدره ، ولم يأبى مكروه ، فقعدنا وقرأنا وأفضنا في الترحم ودعونا* [1] .

وعند الإنصراف إلى المضارب ، أقبلت التحف والهدايا من المقربات الكاملة تختال في الحلية والكسا الرفيعة هي الأوعية الرقيمة ، فعجز الشكر وبان التقصير .

ثم غمر الطعام وتخلف الشيخ عن مجالسة والمؤاكلة معتذراً عنه بألم مانع نغص لدنيا النعيم ، وكدّر الشرب تطيراً من وداعنا إياه ، جلس فراش أو رهين شكاية ، ثم أنه حدسنا أنه ألم الحسباء ونذكر قول الأول :

إذا غدى الطيب يحري في مفارقهم ، راحوا كأنهم مرضى من الكرم فحقت الظنّة ، وصدقت المخيلة.

ومن الغد كان الإنصراف فشيّع واعتلا ، وتألم للمفارقة وتوجع ، كثر الله مثله وكافأ قوله وفعله ، وأورث عزّ تلك البقعة عقبة .

ولم أبح يوم زجارة محل وفاة السلطان أمير المسلمين أن قلت [2]:

يا حُسْنَها من أربع وديار أضحت لباغي الأمن دار قرارِ

وجبال عز لا تَذِلُّ أنوفُها إلا لعز الواحد القهار

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ،ص ص 48، 49.

ايطال : هو المدخل ويقابل في اللغة الاسبانية **ELportal** والانجليزية **Poctiso** وفي الفرنسية **Portque**،المصدر نفسه ،رقم الهامش 2،ص 49

الحلاحل : أي العظيم . المصدر نفسه،رقم الهامش 3،ص 49

الغرانقة : جمع غرنيق وهو طائر مائي أبيض جميل ، ويطلق كذلك على النساب الأبيض الجميل الصورة . المصدر نفسه ،رقم الهامش 4 ص 49.

[2] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص ص 51، 52.

ما كان يقنعه لو امتد المدى إلا القيامُ بحقها من دار
فيعيد ذاك الماءَ ذائب فضة ويعيد ذاك التُّرب ذَوْبَ نُضَار
حتى تفوز على النوى أوطانها من ملكه بجلائل الأوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههم أثر الرعاية ساطع الأنوار
ويسوّغ الأمل القصيّ كِرَامها من غير ما ثُنْيا ولا استقصار
ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى عن درهم فيه ولا دينار
أو أن يُتوَّجَ أو يُقلَّدَ هَامُها ونحورها بأهله ودراري

حقٌ على المولى ابنِهِ إيثار ما بذلوه من نصر ومن إيثارِ
فلمثلها ذُخِرَ الجزاء ومثلُه مَنْ لا يُضيع صنائع الأحرار
وهو الذي يقضي الديون ومثله يرضيه في علن وفي أسرار
حتى تُحُجَّ محلّةٌ رفعوا بها علم الوفاء لأعين النظار
فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً للطائفين إليه أي بدار
تُغني قلوب القوم عن هَدْيٍ به ودموعُهم تكفي لرمي جمار
حُييتِ من دار تكفَّل سعيها ال محمود بالزُّلفى وعقبى الدار

وضفت عليك من الإله عناية ما كرَّ ليل فيك إثر نهار[1]

فلا تسل عن حسن موقعه لديه ، و سرور نفسه به ، وفي الحين طير به إلى أخيه كبيرة وهو على سمّو قدره ، وعلق ذروته ، أشد الناس إيجاباً لحقه ، وانخفاظاً لبأوه ، وتظامنا بمجلسه ، يقوّض

[1] ابن الخطيب،نفاضة الجراب ،المصدرالسابق ، ص ص 52، 53.
شفارهم : أجفان عيونهم ، والشفار يقصد بها السيوف ،المصدرنفسه، الهامش 03، ص53

وارث الأب في الابن العقول ، وانكسار الطرق نتتمي لوظائف المجد ، وإقامة لسوق الحريّة ، فأورى عند لقائنا إياه زبده ، وعقّب الصلّة الجزيلة عذره ، وبلغ قصيّات السبق فضله [1] .

12- مدينة مراكش : [2]

قال فتنفس الصعداء ، وأسمع البعداء ، وقال درج الحلى ، وبيج النير الجلي ، وتربة الولى ، وحضرة الملك الأقلى ، وصرح الناصر العلى ، ذات المقاصير والقصور ، وغابة الأسد الهصور ،وسدّه الناصر والمنصور ، بعداً عن المركز دارتها ، وجرت على قطب السياسة إدارتها ، وسحرت العيون شارتها ، وتعد الإساءة إشارتها ، وخاضت البحر الخضم ، نذارتها وبشارتها ، اقتعدت البسيط المديد ، واستظهرت تنبيه الأسوار وأبراج الحديد ، وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت عذانب كصفاح القيون ، وقيّدت طرف الناظر المفتون ، أدواج الشجر بها وغابات الزيتون ، فما شئت من انفساح السكك ، وسبوغ الشكك ، وانحلال التكك ، وامتداد لباع في ميدان الإنطباع ، وتجويد فنون المجون ، بالمد والإشباع ، زيّنها الزمن بعصب خيرّها يمد ولا يقصر ، وفواكهها لا تحصى ولا تحصر ، فإذا تناصف الحر والبرد ، وتبسم الزهر وخجل الورد ، وكسا جدرانها الحائرة الحلق السرد ، قلت انجن المتقين من الجند الوعد ، وساعد السعد ، وما قلت إلا بالذي علمت سعد ومنارها ، العلم في الفلاة ، ومنزلة المآذن منزلة والي الولاة ، إلا أن هوائها محكم في الجباة والجنوب ، يحمي عليها بكير الجتوب ، ومميساها كلفة بالجسوم ، طالبة ديونها بالرسوم ، وعقاربها كثيرة الدبيب منغصة مضاجعة الحبيب وخرابها موحش هائل ، وبعد

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص ص 53، 54.

[2] **مراكش: Marruecos** بالفتح ثم بالتشديد وضم الكاف ، مدين عظيمة بالمغرب الأقصى أسسها يوسف بن تاشفين ملك المرابطين عام 454 هـ ـ 1062م ، واستمرت هذه المدينة عاصمة الدولة أيام المرابطين والموحدين ، ثم قلت مكانتها السياسية في عهد بني مرين عندما صارت مدينة فاس عاصمة لدولتهم ،ابن الخطيب ،خطرة الطيف ،المصدر السابق،رقم الهامش 447،ص 104

الأقطار عن كثير من الأوطار بها حائل ، وعدوها ينتهب في الفتن أقواتها ، وجرذان المقابس تأكل أمواتها وكانت أولى المنازل بالإغياء ، لو أنها اليوم معدودة في الأحياء [1] .

13- مدينة فاس :

أسسها الأمير إدريس الأول " 172 هـ ، 7899 م " على أن المؤسس الحقيقي لهذه المدينة هو ابنه إدريس الثاني باعتراف جميع المؤرخين ، ففي أوائل عهد الأخير هاجر إلى المغرب الأقصى عدد كبير من أهل الريض بضواحي قرطبة ، وذلك بعد أن ثاروا على أميرهم الأموي الحكم بن هشام واضطر إلى طردهم نهائياً من الأندلس ، فقال رحمه الله قطر تربة ينبت الغنى ، وآفاقه ظل على الدين ممدود بحكم عرين لأسد بني مرين ، ودار العبادة التي يشد بها مطرح الجنة ، ومسجد الصابرين ، وأم القرى ، ومأم السرى ، وموقد نار الوغى ، ونار القرى ، ومقر العزّ ، الذي لايهضم وكرسي الخلافة الأعظم والحرية التي شقّها ثعبان الوادي فما ارتاعت ، والأبيّة التي ما أذعنت لدعاتها الأيالة المرينية ولا أطاعت ، أي كلف وغلف ، ومنفق ومختلف ، ومحاباة ذلف ، وقضيم وعلف ، وخلق عن سلف ، ، إنما الدنيا دلف ، سألت عن العالم الثاني على القاصي والداني هي الحشر الأول ، والقطب الذي عليه المعوّل ، والكتاب الذي لا يأول ، بل المدارك والمدارس ، والمشايخ والفهارس ، وديوان الراجل والفارس ، والباب جامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق ، وتنور الماء الدافق ، ومحشر المؤمن والمنافق ، وسوق الكاسد والنافق ، حيث النبي الذي نظر إليها عطارد فاستجفاها ، وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه الحسود ، فسترها بالغور وأخفاها ، والأسواق التي كل شيء إليها قد حببت ، فالموارد التي اختصت بالخصر وحبيت ، والمنارة المخطوبة لصفاح الحاج المشطوبة ، والغدر التي منها الإطوبة :

بلد أعارته الحمامة طوقها فكساه ريش جناحه الطاووس

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص 408.

فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن سحاب الديار كؤوس .

اجتمع بها ما أولاده سام وحام ، وعظم الالتئام و الالتحام ، فلا يعدم في مسالكها لحام ، فأحجارها صامتة ، ومخابزها شامتة ، ، وألسنتها باللغات الختلفة لاحنة ، ومكاتبها مائجة ، ورحابها متمائجة ، وأوقافها جارية ، والهمم فيها إلى الحسنات وأضدادها متبارية ، بلد نكاح أكل ، وضرب وركل ، وامتياز من النساء بحسن زي وتشكل قنينة بها المياه ، وقتل الحياة ، وتجد لك أزواج الأشباه إلى وفور النشب وكثرة الخشب ، ووجود الرقيق وطيب الدقيق ، وإمكان الإدام ، وتعدد الخدام ، وعمران المساجد والجوامع ، وإدامة ذكر الله في المآذن والصوامع [1].

14- مدينة الملك :

فمدينة الملك ، فبيضاء كالصباح ، أفق للعزر الصباح ، تحقيق لإيوانها إيوان كسرى ، فترجع العين حسرى ، ومتاعة الحرس ، وملاعب الليث المفترس ، ومنابت الدوح المغتوس ، ومدّرس من درّس أو درَسْ ، ومجالس الحكم الفصل وسقائف الترس والنصل ، وأهداف البائسة أولى الخصل ، فأواوين الكتاب ، وخزائن محاولات أُتات ، فكراسي الحجاب ، وعنصر الأمر العجاب إلى الناعورة ، التي مثلت من الفلك الدقار مثالاً ، وأوصى الماء إلى كل سماء منها أمرها فأبدت إمتثالاً ، وتحب العذب البر سلسالاً ، وألأفت أكوابها الترقه ، والترف فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، وفقراء من قوس الغمام ابتغوا لها مثالاً أداروها عليه بلا شك .

فبين الثريا والثرى سد جرمها وللفلك الدوار قد أصبحت تحكي .

تصفع االجين النهر في الروض نائماً دراهم نور قد خلصت من سبك .

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص ص 111، 112.

مدينة الملك : يقصد بها فاس الجديدة . ابن الخطيب ،خطرة الطيف ،المصدر السابق ،رقم الهامش 481،ص 108

الناعورة : آلة لرفع الماء قوامها دولاب كبير ، وقواديس مركبة على دائرة والجمع نواعير ، المصدرنفسه ،رقم الهامش 482،ص 108

وترسل من شهبانها ذا دؤابة فتسقي استراق السمع من حوزة الملك

تذكرت الذي اخترعت به وحنت فما تنفك ساجعة تبكي .

ثم قال : إلاّ أنّ حر هذه المدينة مذيب وساكنها ذيب ، ومسالكها وعرة ، وظهائرها متسعرة ، وطينها هائل ، وزحامها حرب وائل ، إن نشد الجفاء ناشد فهي ضالته المنشودة ، أو حشد أصنافه حاشد ، فهي كتيبته المحشودة ، إلى بعد الأقطار ، وعيات المعازب أوقات الأمطار ، الإشتراك في المساكن والديار ، على الموافقة والإختيار ، وتجهم الوجوه للغريب ، ذي الطرق المريب ، وغفلة الأملس عن الجويب ، ودبيبر العقارب ، أرسالاً كالقطا[1] القارب [2]، وأهلها يرون لأنفسهم مزيّة الفضل ، ويدينون في مكافأة الصنائع البالغة بالعضل ، يلقي الرجل أبا مثواه فلا يدعوه إلى بيته ، ولا يسمح بنقله ولا بزتيه ، فلا يطرق الضيف حماهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسمّاهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ، وقليل ماهم ومقبرتهم غير نابهة ، وأجداثها غير متشابهة ، تشربه حيوان ، ومشعة جرذان ، غير وان [3] .

15- آقر سلوين :

قال واد عجيب ، وبلاد لداع الإيناع مجيب ، مخضر الوهاد والمتون ، كثير شجر الجوز والزيتون ، كنفته الجبال الشم ، وحنا عليه الطود كما تحنو على ولدها الأم ، فهواؤها ملائم ، والعنب على الفصول دائم ، إلا أن الشمس لا تطرقه بنوال ، ولا ترمقه إلا وقت زوال ، قد باء

[1] **القطا** : ومفردها قطاة ، وهو طائر في حجم الحمام ، ابن الخطيب ،خطرة الطيف ،المصدر السابق ،رقم الهامش484،ص109

[2] **القارب** : الطالب الماء ليلاً ،المصدر نفسه ،الهامش 485 ،ص109

[3] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص ص 108، 109.

بالخط الموكوس ، وانكمش تحت إبط الظل المنكوس ، فجوّه عتيم الطلاوة ، وعنبه للبرد قليل الحلاوة[1]

16- سجلماسة : [2]

قال تلك كورة وقاعدة مذكورة ، ومددينة محمودة مشكورة ، كانت ذات تقديم ، ودار ملك قديم ، وبلد تبر وأديم ، ومنهى تحل ومكسب عديم ، معدن التمر ،ب حكمة صاحب الخلق والأمر ، تتعدد أنواعه ، فتعي الحساب وتجم به فوائده ، فتحسب الإقتناء والاكتساب ، قد استدار بها الخلق االسور ، الأمر المحاب ، والقطر الذي تجار في ساحته النجاب ، فضرب منه على عذارها الحجاب ، باطنه فيه الرحمه ، وظاهره من قبله العذاب ، يحيط بها مرحلة راكب ، فتصيرها سماء مخضرة ، ذات كواكب ، فمنازلها لا تمال بهوان ، وفدنها ودمنها تحت صوان ، ونخلها تطل من خلف الجدار ، وتتبوأ الإيمان والدار ، وحللها مثبوتة بين الدمن ، وضياعها تتملك على مر الزمن ، وسوائمها آلفة للسمن ، موجودة بنزر الثمن ، وفواكهها حميمة ، ونعمها عميمة ، وسورها حصين مشيّد ، وجسرها يعجز عن مثله معتصم و رشيد ، وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم ، ويرجع إلى والٍ يكف كل ظلوم [3].

مهب أم البلدان المجاورة لحدود السودان ، فتقصدها بالتبر القوافل ، وتهذي إلى حرابها النوافل ، والرفاهية بها فاشية ، والتفاشي الحلية الناشية ، لكنها معركة بنيان ، وقتيل عقر بها جبان ، ولباسها خامل ، والجفاء بها شامل ، والجو سفير عن الوجه القطوب ، والمطر معدود عن

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ج02 ، ص 109.

[2] **سجلماسة** : يطلق هذا الاسم على مقاطعة في جنوب المغرب الأقصى الآن " تافيلالت" ،. ابن الخطيب ،خطرة الطيف ،المصدر السابق،رقم الهامش 487 ،ص 109

[3] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص ص 180، 181

يقصه دول الأمرين : دولة بني مرين التي عاصبرت دولة الأدارسة ، فقد اتخذت سجلماسة قاعدة لملكها .

الخطوب ، لبناء جدرانها بالطوب ، والقرع برؤوس أهلها عابث ، والعمش في جفونهم لابث ، والحصا يصيبهم ، ويتوفر منه نصيبهم [1] .

17- تازة :[2]

قال بلد بلا امتناع ، وكشف قناع ، ومحل ريع وإيناع ، ووطن طاب ماؤه وهواؤه ، وباب شراقة واعتلاوة ، وحلب فيه مواهب الله وآلاؤه ، عصير مثل أمل الخصب به ممثل ، وفواكه لا تحصى ،يمار بها البلد الأقصى ، وحبوبه تدوم على الحزن ، وفخاره آية في لطافة الجرم وخفة المتن ، إلا أن ريحه عاصف ، وبرده بصيفه واصف ، وأهله في وبال ، من محمرة أهل الجبال ، ولبئه مفترسة ، وأخلاق أهله شرسة

18- غساسة :

قلت فغساسة ، قال فرسية وأليلة ، وحشف وسوء كليلة ، إلا أنها مرسى مطروق بمل ما يروق ، ومرفأ جارية ، بحرية ومحيط حبابه تجرية [3].

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص 181.

[2] **تازة : Taza** تبعد عن المدينة المغربية عن فاس 119 كلم ، تتمتع بموقع جغرافي هام مما جعلها تتخذ على أمر العصور قاعدة حربية . ، ابن الخطيب ،خطرة الطيف ،المصدر السابق ،رقم الهامش489،ص110

[3] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص ص 182، 183.

غساسة : مدينة ذات موقع يقرب من مصب نهر ملوية بالبحر المتوسط وكانت هذه المدينة يومئذ مقراً للقبائل بطوبة ، ومن قبل فهي مرسى له أهميته ، يقع غرب مليلة أجهز عليه الاسبان عام 1496 م . ، ابن الخطيب ،معيار الاخيار ،المصدر السابق ،رقم الهامش185،ص851

19 – مدينة أغمات : [1]

قلت فأغمان ، قال بلده لحسنها الاشتهار ، وجنة تجري من تحتها الأنهار ، وشمامة فتصوع منها الأزهار ، متعددة البساتين ، طامية بحار الزياتين ، كثيرة الفواكه والعنب والتين ، خارجها فسيح ، والمذانب فيه تسيح ، وهواؤها صحيح ، وقبولها بالغريب شحيح ، وماؤها نمير ، وماء وردها مهد للبلاد دهير ، إلا أن أهلها يوصفون بنوك فذهول ، بين شبان وكهول ، وخرابها يهول ، وعدّوها لضيف كثرته السهول ، وأموالها لعدم المنعة في غير ضمان ، ونفوسها لا تعرف طعم أمان [2]، هنا يتكلم عن محاسن هذه المدينة وسذاجة أهلها ، وعن مسجدها فمئذنته المخروطة الشكل ، فهو نص مفيد من الناحية المعمارية الأثرية ، مذلك زتر ابن الخطيب في هذه المدينة قبر الملك الشاعر المعتمد بن عباد الملك أنسيلية وأحد ملوك الطوائف الذي نفاه المرابطون إلى هذه المدينة العامرة أغمات التي كانت في ذلك الوقت ، عاصمة هذا الحوز الجنوبي قبل تأسيس مدينة مراكش ، في القرن " 5 هـ / 11م "، وقد مدح ابن الخطيب بقصيدة جميلة نشرها وترجمها المستشرق الهلندي رينهارت دوزي ضمن النصوص التي قدمها عن أسرة بن عباد يقول ابن الخطيب في هذا الصدد :" ثم أتينا مدينة أغمات في بسيط سهل موطأ لا نشز فيه ينال جميعه السعي الرغد ، وهذه المدينة قد اختطيت في الفضاء الأفيح ، فبلغت لغاية من رحب السّاحة ، وانفساح القورة مثلت فصبتها منها قبلة ، وسورها مهد الترب ، تنجع الجليدة ، مندمل الخندق ، يخترقها وادان إثنان من ذوب الثلج ، قامت بضفتها الأرجاء ، واردة وصادرة ، مرفوعة الأسداء ، منبعة البناء ، ومسحبها عتيق ، عادي كبير الساحة ، جيب الكتف متجدد الألقاب ، ومئذنته لا نظير لها في معمور الأرض ، أسسها أولوهم بديعة الشكل ، وما زالوا يبخسون الدرع ، ويجحدون العرض حتى صارت كسماء كاد يجتمع في زاية المخروط ، وأذيب عليه فار من الخشب بطيف

[1] **مدينة أغمات** : فتقع في جنوب مدينة مراكش ، على سفوح جبل الأطلس ابن الخطيب .خطرة الطيف ،المصدر السابق ،رقم الهامش476 ،ص 105

[2] لسان الدين ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج02 ، ص 105.

بناء لاط ، وقد أطل سامي سامورها فوقه ، فقبحت حتى ملحت واستحقت الشهرة والغرابة ، وأهل هذه البلدة ينسب إلأيهم نوك " حمق " وغفلة ، علتها إن صدقتت الأخبار ، سلامة وسذاجة فتعمر بمجلسهم الأسمار ، وتتجمل بنوادر حكاياتهم الأخبار ، فمنها أنّ ملك المغرب لما عجب من هذه المئذنة إستأذنو في نقلها إلى بلده على سبيل الهدية .

كرمت حيا وميتا وأسهرت علا فأنت سلطان أحياء وأموات [1] .

20- الرباط : [2]

والذي ظهل به المنصور الاغتباط حيث القصيبة والساباط ، ووقع منه بخطوة الاعتباط ، فأشبع الخرق ، وعظم الاشتماط ، وبعد الكمال يكون الانحطاط إلى شامة مرعى الزهر ، ونتيجة الهمم " ومشمخ الأنوف ذوات الشمم ، وعنوان بن نديم ، حيث الحسنات المكتتبة ، والأقعاف المرتبة ، والقباب كالأزهار مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، وطلل حسان المثل في الاشتهار .

وهب على الحملة من غيرها ، وفق ومغارمها الاحترام الملوك الكرام ، ارقق ومقبرتها بنضدة عجب في الانتظام ، معدودة في المدافن العظام ، وتتأتى بها للعباد الخلوة وتوجد منها للهمم السلوة كما قال ابن الخطيب :

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، لسان الدين وكتاباته التاريخية ، ص ص 51،52

محمد عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي ملك غرناطة ، وأحد ملوك الطوائف ، لم يقته المرابطون حينما ملكوا الأندلس كما فعلوا بمعظم ملوك الطوائف واكتفوا بنفيه إلى أغمات بالمغرب .

[2] **الرباط :** **Rabat** هي عاصمة المغرب الإدارية ، وقد أسسها الخليفة المنصور أبو يوسف بن عبد المؤمن " 554هـ - 595م " اشتهر ملوك الموحدين ، وسماها رباط الفتح ، وهي مدينة الأبواب العظيمة الشامخة ، الثيراء تشرف على المدينة وعلى بقايا أطلال المسجد . ابن الخطيب ،معيار الاخيار ،رقم الهامش 71 ،ص152.

الساباط :سقيفة بين دارين تحتها طريق المصدرنفسه ،رقم الهامش*72* ص152

مجاشر : يعني القدى والضياع ويقال ، لها في المغرب الآن المداشر،المصدر نفسه ،رقم الهامش 76 ،ص 155

وصلت حليت السير فيمن فلا الغلا فلا خاطري لما نأى وانجلى انجلى

فلا نسجت لربي بقلبي سلوة فلما سرى فيه نسيم سلا .

تكف بالسنابل رزقاً طرياً ، وسمكاً بالتفضيل حرياً ، يبرز عدد قطر الديم ، ويباع ببخس القيم ، ويعم حتى المشاجر النائية والخيم ، إلا أن ماؤها لا يروي به بارد لا كريم ولا باري أليفها شارد ، والخزي نبها فاسد ويعوضها مستأسد راضع غير مفطوم ، واسم للخد الخرطوم ، يذيالك الخرطوم ، خالع للعذان غير مخطوم ، يصغي لرنته الآذان ، ويفتك ذكر الستان ، كالقوس تصمي الرهايا ، وهي مزيان وديارها في الماء دار عثمان ، وطواحنها غالية الأثمان ، وكثبانها العفر ثلاث بيض الثياب ، حلى العباب ، وعاس واديها إلى مأرب أكيد في تنكيه إلى غلبة الامساك ، فخوض السنالك وكثرة أرباب الحفظ للأغنياء في الشطط ، تذود عن جنباته للأسد ، جنان فلا يلتذ بقطف المنقود منها بنان ، وفي أهلها خفة ، وميزانها لا تعتدل منه كفة [1] .

21- مدينة دكالة : [2]

وعندما زار ابن الخطيب مدينة دكالة المغربية طلب على غير عادة منه الإجازة من أحد علمائها ، وهو ما لم يطلبه ممن التقى بهم من قبل ، وكان الشيخ الذي طلب منه الإجازة هو قاض دكالة الحاج أبو عبد الله بن سعيد بن عثمان ، فقال : وسألته الإجازة فيها عملية واكتساب شيء من منظومة الكثير [3] .

[1] لسان الدين ابن الخطيب ،معيارالإختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص ص 152، 156.

دكالة : نسبة لقبيلة من قبائل البربر وهي ملتقة تجاري لقبائل البربر ، أشار ابن الخطيب إلى أنها سوق يختير إليه الناس ضحى .

[2]

[3] علاقات مملكة غرناطة مع الدول الاسلامية ، ص 228.

22- مدينة تلمسان :

فمدينة تلمسان ، قال تلمسان مدينة عجب بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف كأنها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشمة ، وأعلاجه عبادها بيها ، فكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها اعتيانها وهو القصود بها فريد وهواؤها الممدود صميج عقيد ، وماؤها بريد صريد ، حجيتها آنية القدرة عن الجنوب، فلا تحول فيها ولا شحوب . خزان زرع ومسرح ضرع فواكهها عديدة الأنفاع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع .

إلا ّ أنها بسبب حب الملوك ، مطعمة الملوك ومن أجل مغلوبة للأمراء أهلها ليس عندها جمعها الصيد في جوف القرار الراحة ، إلا فيه قبضت عليه الراحة ، ولا ملاحة إلا لمن أقام رسم الفلاحة ليست بها لسيد العقاب ، إلا فيها بين الأقارب فلا شطارة إلا فيمن ارتكب الخطارة [1].

23- وصف مدينة سلا :

ويلا على ما علمت سور حقير ، وقور إلى التجنيد والتشيد فقير آطام حامله ، وللرم آمله ، وقصبتها بالبد متصلة ، ومن دعوى الحصانة منتصلة ، سورها مفرد ، لا سلوقية تقبه ، وبابها مقصدها لا ساتر بحميه ، والماء بها معدوم وليس له جب معلوم ، ولا بئر بالعذوبة مرسوم ، وفي عهد قريب استباحها الروم ، في اليوم الشامس ، ولم ترد يد لامس ، من غير منجنيق نصب ، ولا تاج ملك عليها عصب ، قلة سلاح وعدم كفاح ، وخمول سرر واختلال أمور .

وسلا بلد الرمال ، ومراعي الجمال ، بطيحة لا تنجب السنابل ، وإن عرفت المطر الوابل ، وجرد الخارج وبحرها مكفوف بالعنب والمدارج ، ووواديها مالح المذاق ، ومستمد من الأجاج

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص ص 183، 184

الزعاق ، قاكع بالرقاق من الآفاق إلى بعد الاتفاق ، وتوقع الأعراف وسنابلها مقصور على فصل وكم لشوكة من شبا نصل ، عدمت الفاكهة ، والمتنزهات النابهة [1] .

وأين سلا من هذه المزية ، والشنعة العلية ، أين الجنود والبنود والحصون تزور منها الوفود ، وإن كان بعض الملوك ذهب الى اتّخاذها دار و استيطانها من أجل الأندلس قرار ، فلقد هم وما أتم وطلله نم .

وأما سلا فأحوال رفيعة ، وثياب في غالب الأمر خليقة ، وذمم منحطة ونفقات تحصرها من التقتير خطة ، ومساجد فقيرة ، وقيسارية حقيرة ، وزي مجلوب ، وحلى غير معروف ولا منسوب ، تملأ مساجدها الفذ العدد والأكسبة ، وتعدم أو تقل فيها الطيالس ، والأردية ، وتكثر البلغات ، وتندر النعال ، وتشهد بالسجيّة البربرية الأصوات واللغات والأقوال والأفعال .

وسلا بلد عديم الظلال ، أجرد التلال ، إذا ذهب زمن الربيع والخصب المربع ، صار هشيماً ، وأضحى ماؤها حميماً ، وانقلب الفصل عذباً أليماً [2].

ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظراتها من بلاد المغرب وأشكالها ، إذ لا ينكر فضل اِعتدالها ، وأمنها من الفتن وأهوالها ، عند زلزلها مدفن الملوك الكرام بجبالها .

و سلا مصب الأمطار ، ومرعى القطار ، وبادية بكل إعتبار [3] .

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب، خطرة الطيف ، ص ص 59، 60.

سلا : **Sala** مدينة أزلية قديمة تقع على ساحل المحيط الأطلسي ، كانت في الأصل قرية بربرية صغيرة ، يرجع بنائها إلى حوالي عام 1500 ق م ، وقد أنشأها القرطاجنيون ، كانت سلا تقع في أقصى الحدود الجنوبية للمستعمرة الرومانية بالمغرب المصدر نفسه ،ص 61.

[2] لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب و الأندلس ، ص ص 61، 63.

[3] المصدر نفسه، ص 66

2- تصوير ابن الخطيب لمظاهر الحياة الاجتماعية المغربية :

أ- الأعياد : بدأ الإحتفال بالعيد النبوي مع المبالغة في هذا الاحتفال أيام العزفيين وذلك لمقاومة التقليد الديني والمسيحي ، فقد دأب الأندلسيون على تقليد المسيحيين في اِحتفالهم بالمهرجان وبالنيروز ، وقد اتّخذ الاحتفال بالعيد النبوي تقاليد خاصة على مر العصور ، ولكن الذين أعطوه هذا التقليد الخاصة فكسوه رونقاً رائعاً هم المرينيون وبخاصة في عهد أبي الحسن .

ب- زيارة الأضرحة والربط :

فهو يشخص النزعة الدينية التي كانت مهيمنة على سلاطين دولة بني مرين توارثوها كابراً عن كابر فقد جاء في الذخيرة السنيّة عند الحديث عن عبد الحق المريني حاول ابن الخطيب أن يغتنم هذا الجو السائد ، فأراد أن يطوف في أرجاء المغرب وبخاصة الجنوب ، وقام برحلته مطلعاً على الآثار ومتبركاً بالربط وجامعاً الأموال حتى عاد إلى شالا وظن أن ابن الخطيب لا يقصد من كل هذه التحركات إلا ضماناً للسلامة والغنى ، مغتنماً هذا التقليد الذي سنّه السلاطين المرينيون [1] .

ج-وصف بعض الألعاب:

نستنتج من شعر ابن الخطيب أن المرسيون إلى جانب إحتفلاتهم الدينية كانوا يهتمون أيضا بالجانب الترفيهي ومن ذلك مصارعة الأسد والثور فقد كان لهذه اللعبة ميدان خاص أسماه ابن الخطيب "ملاعب الليث المفترس حيث ترك لنا ابن الخطيب وصفا طريفا لهذه اللعبة نثرا وشعرا.

د-وصف بعض العادات الخاصة:

لعله مما يلفت انتباهنا وصف سكين الكم، وهي سكين ربما كانت تستعمل للدفاع عن النفس أولا، ثم صارت شرف المحتد.

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، ديوان لسان الدين ابن الخطيب السلماني ، تحقيق : د. محمد مفتاح ، المجلد 01، النشر والتوزيع دار الثقافة ، الطبعة 01، 1409هـ / 1989م ، ص ص 77، 78.

الإشارة على بعض المآكل وفئات المجتمع، وشعر ابن الخطيب لا يخلوا أيضا من بعض الإشارات إلى بعض المأكولات المغربية الخاصة كالحريرة،

ويقول في طبقات المجامع:

مبنلـــــى أنـــــت بـــــالبرابر والغـــــز وأهـــــل الجبـــــال والصـــــحراء[1]

[1]- لسان الدين ابن الخطيب ، ديوان لسان الدين ابن الخطيب السلماني ، المصدر نفسه، ص ص 79-80.

خاتمة

تعد دراستنا لشخصية ابن الخطيب واطلاعنا على ظروف صقل شخصيته العلمية توصلنا إلى مجموعة من النتائج

– تميز العصر الذي عاش فيه ابن الخطيب بالقلق والاضطراب فقد شهدت الحياة السياسية بغرناطة صراعا داخليا بين أمراء غرناطة وخارجيا مع النصارى إلا أنها لم تقف عائقا أمامه و لم تمنعه من مواصلة عمله .

– ابن الخطيب هو نهاية معقولة لمثل هذا التاريخ فهو آخر سلسلة ذهبية من أعلام الفكر الأندلسي الذي يعرف له إسهاما في الجغرافية والرحلات ذات القيمة الجغرافية .

–استطاع ابن الخطيب أن يرصد تنوع المعالم الحضارية للبلدان التي زارها فإنه صحح من خلال كتابات حسين مؤنس معتقدات الناس واختلف عن ما جاء له القدامى مثال :"البكري وغيره"

– وبالرغم من كل ما أصابه من نكبات متوالية فانه لم يقعد عن التأليف فلم يخلد إلى السكينة ويكفي دليلا على ها تلك المؤلفات التي حررها وقتئذ .

– أما وصيته فكانت جامعة ونافعة ، أوصى أولاده بأمور متعلقة بالمعاش والحث على طلب المعارف والعلوم ، والدعوة إلى الأخلاق الكريمة ، ووجوه تحصيل المال وصرفه ، وطاعة ولي الأمر وأخرى متعلقة بالحياة (الدعوة إلى التدين والتحذير من الدنيا ، والحث على إقامة عهد الإسلام وفروضه).

–يعتبر ابن الخطيب أحد كبار العلماء المؤرخون ويؤكد عدد كبير من المؤرخين والدارسين على أنه أعظم شخصية ظهرت بالأندلس ظهرت في القرن الثامن وثالث عشر ميلادي وقد كان عبقري متعدد الجوانب.

-تمكن إلى حد بعيد من ان يقدم لنا صورة شيقة ذات موضوعية ومنهجية عرفت عنه في تاريخه اذ ما استثنينا بضعة أفراد تناولهم قلمه ممن أظلم الجو بينه وبينهم فكادوا له أو كاد لهم امثال القاضي النباهي والذي استصدر الفتوى بإعدامه شرعا والوزير بن زمرك مؤازرا النباهي في حملته ضد ابن الخطيب وبضعة أفراد من معاصريه لم على وفاق معهم.

-إن حياة إبن الخطيب على امتددها فقه باللغة العطاء، فقد منج المعرفة الإنسانية الشيء الكثير وبذل من نفسه وعلمه لوطنه الأندلس والمغرب في مجال السياسة والثقافة فضلا عن قصة حياته نفسها التي تمثل مرحلة هامة من مراحل الصراع على السلطة فالذي كان طابع التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى.

-وقف إبن الخطيب على أحوال هذه المدن الأندلسية خلال هذه الرحلة وكون لنفسه ودون في مذكراته فكرة عميقة موضوعية عن كل مدينة زارها الركب السلطاني التاريخي إنه يفضل المدن الأندلسية على المدن المغربية وهذا من خلال ملاحظاتنا في مفاخراته بين مالقه وسلا

- أما المدن المغربية فقد زارها أكثر من مرة وفي كل مرة كان يتجول في البلاد فيتعرف عليها ، ويختلط بأهلها ولاسيما رجال الإدارة والعلماء والخاصة.

- كان إبن الخطيب من بين هذا الحشد الحافل ، من المفكرين والمؤرخين إذ يعتبر أخر المؤرخين فإن ابن الخطيب يأتي في قمة هرم الأعلام الأندلسية ، وهو اكبر كاتب أتبعته الأندلس في عصورها الأخير حيث ملأ الدنيا شعرا وأدبا فما من مجال إلا وله فيه ذيل وما من موضوع إلا وقد تناوله بذراع رحب، مثل الكتابة العلمية والتاريخية والسياسية والعلوم والتصوف إذن فهو موسوعة أدبية علمية إنسانية لم تتوفر كثيرا في الأندلس –فهو عقل الأندلس وثمرة حضارته.

- ويظهر هنا أن الرحلات فد ركزت على العلاقة بين المكان والإنسان وأولت الحياة الإجتماعية قدرا كبيرا من العناية والاهتمام . فألقت الضوء على كل مالفت انتباه الرحالة من

أحوال الإنسان وما يرافقها من العادات والتقاليد وصولية لباسهم والأطعمة والأسرية، وتصرفات الفقه في مناسباتهم الاجتماعية المختلفة.

– ابن الخطيب هو نهاية معقولة لمثل هذا التاريخ فهو أخر السلسلة الذهبية من أعلام الفكر الأندلسي الذي تعرف له إسهاما في الجغرافية والرحلات ذات القيمة الجغرافية.

– يعد ابن الخطيب موسوعة علمية نادرة ولا سعي في أخريات العصر العربي الأندلسي ومؤرخا يكاد يكون فرديا وخاصة في فترة عرفها التاريخ يفعل اضطرابات التي كانت تجارتها الأندلس بالذات يومئذ وناهيك بمؤلفاته العديد المتنوعة والتي قاربت الستين بيد أن ما قدر له أن يبقى منها يقل عن هذا وقد نشر بعض منه تراثا إنسانيا أفاده منه الباحثون شرقا وغربا فكان لسان الدين بذلك حقيقا بتنويه المتشرفين والمؤرخين القدامى منهم والمحدثين.

– مشاهدات ابن الخطيب ورحلاته في المدن الأندلسية والمغربية لها أهمية خاصة على الجوانب المهمة من تاريخ تلك المدن ، فوصفت حياتها الاجتماعية وقدمت تطورا واضحا عن مدى التنوع والاختلاف في العادات والتقاليد المحلية، وفي تلك الرحلات نقل صورا جلية عن كل المناطق .

– ابن الخطيب شخصية متعددة المواهب ترك تراثا حافلا ومتنوعا في ستين مؤلف كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين وقد وصل إلينا هذا التراث في أغلبية ولاسيما المجموعة التاريخية والأدبية التي هي في الواقع له تراثه والتي تلقي الضوء على تاريخ الأندلس والمغرب في أواسط القرن الثامن من هجري وثالث عشر ميلادي والظاهر أن مؤلفاته التي لم تصل إلينا قد هلك معظمها في محنته إحراق كتبه التي وقعت في غرناطة 773 ه وان معظم كتبه التي نجت من تلك المحنة قد وصل إلينا عن طريق المغرب خلال فترتين أولاهما مابين سنتي 761ه وأواسط 763ه وقائية منذ أوائل 773ه حتى مصرعه في أوائل 776ه

–رحم الله ابن الخطيب كفاء مازود التاريخ من ذخائر وأهدى العلوم والمعارف من نفائس.

– نلاحظ أن أسلوب ابن الخطيب الكتابي ، يختلف عن أسلوب رحلاته الأخرى ، أي انه لم يأخذ طابع فن بالسجع والتقفية ،بل كان كلاما مرسلا جزلا في اغلب الأحيان،غير أن أسلوب ابن الخطيب نراه بصفة عامة بادى التكلف، مليئا بالصنعة اللفظية ومحسنات البديعية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الزمن ونجده قد استعمل المنهج الوصفي في تأليفه كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب .

قائمة المصادر والمراجع

- قائمة المصادر والمراجع :

المصادر:

-القران الكريم.

- ابن القاضي ، درر الحجال في أسماء الرجال ، ج01، تح: محمد الحمدي ، دار التراث ، المكتبة العتيقة ، مصر ، تونس ، 1970م .

- ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تح : محمد سيد جاء الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، دت .

- أحمد المقري التلمساني ، نفح الطيب ، تح : إحسان عباس ، بيروت ، ط02، 1997م ، ج03.

- أحمد المقري المغربي المالكي الأشكري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج04، مكتبة زيدان العمومية ، 2005 ، الطبعة الأولى .

- أحمد المقري المغربي المالكي الأشكري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج04

- أحمد بابا التنيكتي ، 963/ 1036 ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، مج02، دار الكاتب طرابلس ، ترجم له و لم يذكر سنة وفاته ، الطبعة 02، 2002م ، إفرنجية.

- لسان الدين ابن الخطيب ، ديوان لسان الدين ابن الخطيب السلماني ، تحقيق : د. محمد مفتاح ، المجلد 01، النشر والتوزيع دار الثقافة ، الطبعة 01، 1409هـ / 1989م .

- لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح : محمد عبد الله عنان ، ط04.

- لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح : يوسف علي الطويل ، ط الأولى 1424هـ / 2003م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج01.

- لسان الدين ابن الخطيب ، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس ، تح : أحمد مختار العبادي ، دار السويد للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، ط01، 2003.

- لسان الدين ابن الخطيب ، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس ، ج01، تح: د. أحمد مختار العبادي ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، 4448 ، ط الأولى ، 2003م .

- لسان الدين ابن الخطيب ، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، تح: محمد عبد الله عنان ، ج02، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، ط01، 1401هـ / 1981م ، ص 307.

– لسان الدين ابن الخطيب ، كناسة الدكان بعد اِنتقال السكان ، تح: محمد كمال شبانة ، وحسن محمود ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .

- لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، مجموعة من رسائل ، تح : أحمد مختار العبادي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، 1983م

– لسان الدين ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، ج01 ، الطبعة ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة 1423ه، 2008م.

- لسان الدين بن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، نص محب الدين الخطيب ، القاهرة ، 1347م.

- لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس " مجموعة من الرسائل " ، جامعة الاسكندرية 1958م .

- محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في حية الأقطار ، ، تح : الدكتور إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ، 1975 ، الطبعة الثانية 1984 م ، بيروت .

– محمد عبد المنعم الحميري ، تح : إحسان عباس ، بيروت ، لبنان ، ط02، 1984م .

المراجع:

– الرسائل الجامعية :

- حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ج01، تقديم : محي الدين صابر ، القاهرة ، ط02، 1986م .

- حسين مؤنس ، تاريخ الفكر الأندلسي ، مكتبة الثقافة ، ط01، 1928م.

- خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ج07، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط05، 1980م

– عبده بن محمد عواجي عبد القهار ، علاقات مملكة غرناطة في الدول الاسلامية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية.

- فراسيسكو دي أسيت مندت ، كاساريبجو ، معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلدات الحادي عشر والثاني عشر ، 1963، 1964م.

- محمد بن عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط04، 1417ه ـ 1997م .

- محمد عبد حتاملة ، موسوعة الأندلس والمغرب العربي ، دار المدار الثقافية للطباعة والنشر ، البليدة ،1429هـ – 2009م .

– المجلاّت :

– سرى طه حسين ياسين ، لسان الدين ومنهجه في كتابه أوصاف الناس في التواريخ والصلات ، مجلة كلية الإمام ، الجامعة العراقية ، كلية التربية للسان ، دت ، دط .

م.د ساجد مخلف حسن،المعطيات الحضارية في كتاب الاحاطة في اخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ،مجلة العلوم الاسلامية ،دت،دط

الملاحق

الملحق 01:مكان تواجد ضريح ابن الخطيب.

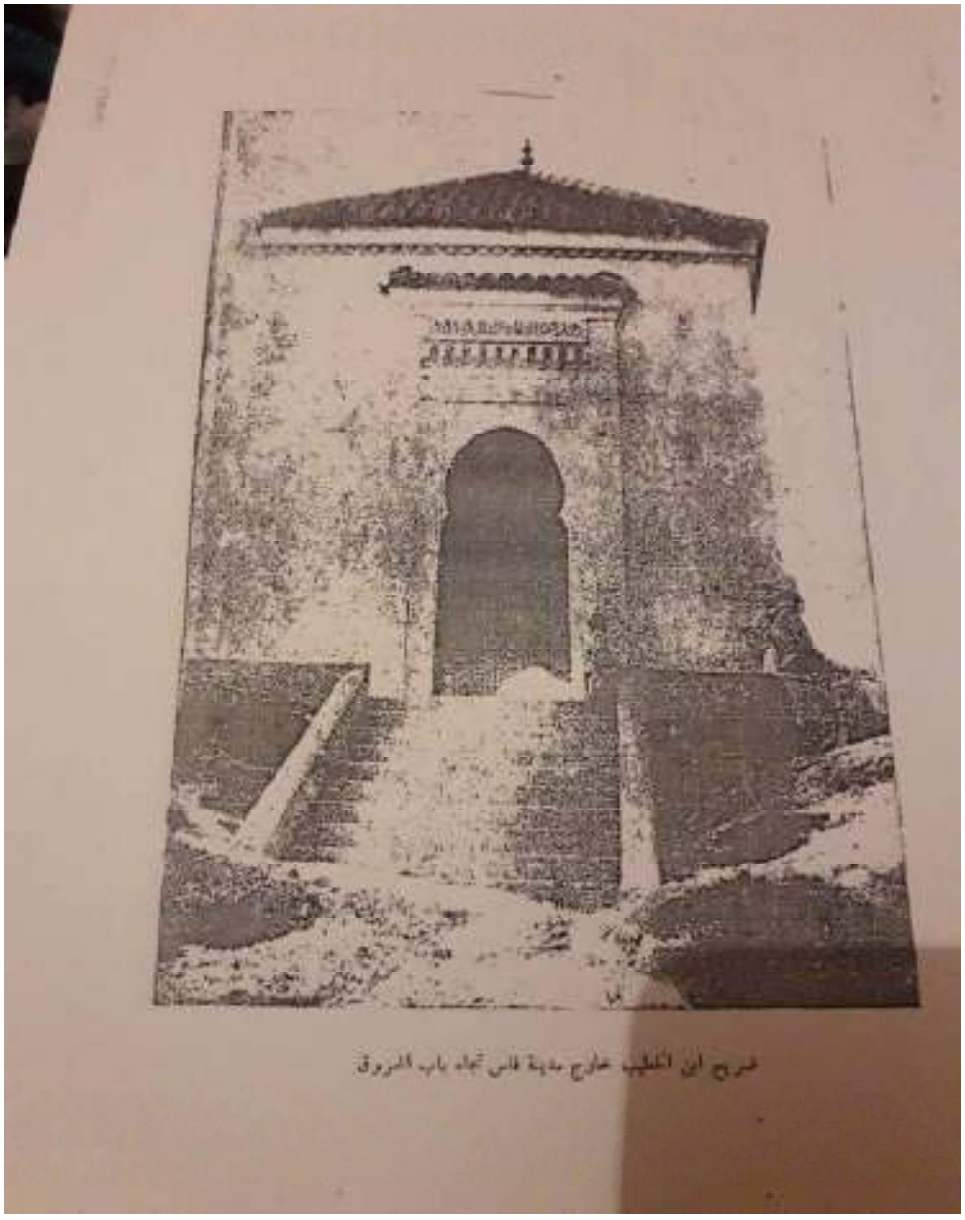

ضريح ابن الخطيب خارج مدينة فاس تجاه باب المرزوق

المصدر: ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، ص171

الملحق 02: خريطة توضح مملكة غرناطة

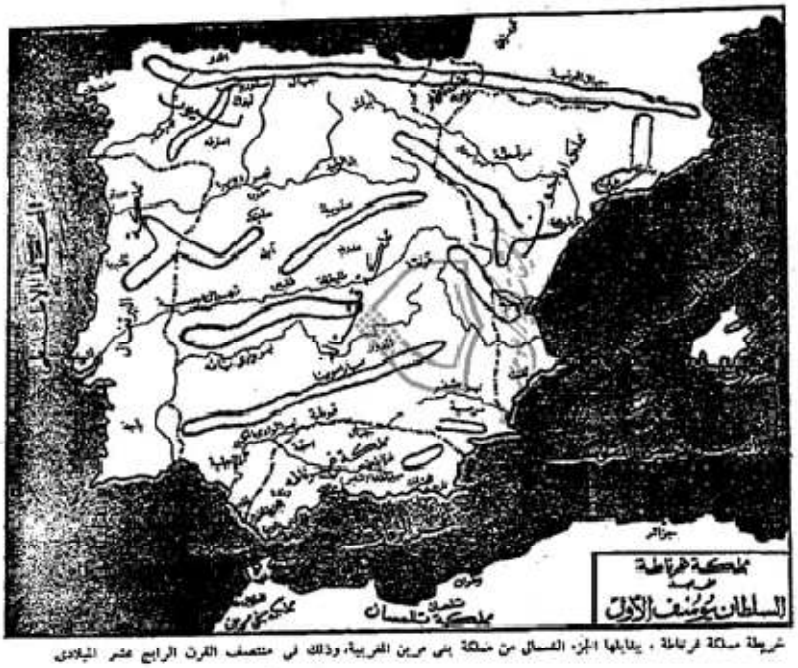

خريطة مملكة غرناطة ، يغلب عليها الجزء الشمالي من مملكة بني مرين المغربية، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي

المصدر: ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، ص80

الملحق 03:خريطة توضح مدن المغرب

المصدر: ابن الخطيب ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، ص142

فهرس المحتويات

شكر

إهداء

إمقدمة. ..... أ

الفصل الأول**حياة لسان الدين بن الخطيب**

1-اسمه ومولده: 7

2- نشأته العلمية وشيوخه وتلامذته : 9

تلامذته :..... 11

1- أبو عبد الله بن زمرك الغرناطي (**734 /1333- 1393/796**) : 11

2- ابن جزي الكلبي :..... 11

3- أبو عبد الله الشريشي : 12

4- أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي : .. 12

5- الحياة السياسية على عهد ابن الخطيب : 12

5- وفاة زوجة ابن الخطيب:..... 17

6- أولاد لسان الدين ابن الخطيب: 18

7- وصيته لأبناه: 19

08/نكبة وفاة ابن الخطيب:..... 26

أ/ تراث ابن الخطيب:. 29

ب/ المجموعة التاريخية:..... 30

1/ كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة:. 30

2/ التاريخ المحلى في مساجة القدح المحلى:..... 30

3/ الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة:..... 30

4/ اللمحة البدرية في الدولة النصرية:. 31

5/ رقم الحلل في عظم الدول:. 31

6/ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب:..... 31

7/ أعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام:. 31

8/ طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر: 31

9/ الإكليل الزاهر فيمن فصل عدد نظم التاج من الجواهر. 32

10/ عائد الصلة:. 32

11/ الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة:. 32

12/ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: 32

13/ كناسة المكان بعد انتقال السكان:. 32

14/ معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار:. 32

15/ خطوة الطيف في رحلة الشتاء والصيف:..... 33

16/ روضة التعريف بالحب الشريف أو كتاب المحبة:. 33

17/ استنزال اللطف الموجود في سير الوجود:. 33

18/ رسالة في السياسة:. 33

19/ مثلى الطريقة في نصر الوثيقة:..... 33

20/ رسالة في الموسيقى:. 33

21/ مفاخرة بين مالقة وسيلا:..... 33

22/ بستان الدول:. 34

23/ تافه من جم ونقطة من يم:. 34

آثار ابن الخطيب المنظومة:..... 34

24/ الديوان المسمى الصيب والجهام والماضي والكهام:..... 34

25/ الحلل المرموقة في اللمع المنظومة:..... 34

26/ السحر والشعر:..... 34

27/ جيش التوشيح:..... 34

28/ عمل من طب لمن حب:..... 35

29/ أرجوزة في الطب:..... 35

30/ رجز في الأغذية أو أرجوزة الأغذية:..... 35

31/ الوصول لحفظظ الصحة في الفصول:..... 35

32/ كتاب في علاج السموم:..... 35

الفصل الثاني:**المدن الأندلسية التي تناولها ابن الخطيب بالوصف**

1_ولاية غرناطة :..... 40

من عوائد أهل هذه المدينة غرناطة :..... 47

الجانب الإقتصادي :..... 48

2-ولاية مالقة:..... 49

3-بليش مالقة :..... 53

4-قمارش :..... 53

5-ولاية المرية :..... 54

6-المنكب :..... 55

7-برجة :..... 56

8-دلاية :..... 57

9-طبرنش :..... 57

10-بيرة : 57
11-بجاقر : 58
12-قنتورية : 59
13-برشانة : 60
14-أورية : 61
15-بليش الشفراء : 61
16-بسطة : 62
17-أشكر : 62
18-قشبالش : 63
19-أندرش : 63
20-فنيانة : 63
21-وادي آش : 64
22-شلوبانية : 65
23-الحمة : 66
24-لوشة : 66
25-أنتقيرة : 67
26-قرطمة : 67
27-رندة : 68
2 -تصوير ابن الخطيب لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية الأندلسية: 70
ج-تصويره لبعض الآفات الاجتماعية: 70
د- تصويره لمظاهر النعمة والترف: 70

ه- الألفاظ والأمثال العامية: 71

الفصل الثالث:الوصف الجغرافي للمدن المغربية في كتابات ابن الخطيب

2- وصف ابن الخطيب لمدينة باديس :..... 79

3- مدينة طنجة : 79

4- قصر كتامة : 80

5- مدية أصيلا : 81

6- آنقا :..... 81

7- آزمور : 81

8- تيط :..... 82

9- آسفي : 82

10- مكناسة الزيتون :..... 84

11- جبل هنتاتة : 87

12- مدينة مراكش : 94

13- مدينة فاس :..... 95

14- مدينة الملك :..... 96

15- آقر سلوين :..... 97

16- سجلماسة : 98

17- تازة : 99

18- غساسة :..... 99

19 – مدينة أغمات : 100

20- الرباط : 101

21- مدينة دكالة : 102

22- مدينة تلمسان : 103

23- وصف مدينة سلا :..... 103

2- تصوير ابن الخطيب لمظاهر الحياة الاجتماعية المغربية :..... 105

أ- الأعياد : 105

ب- زيارة الأضرحة والربط :..... 105

ج-وصف بعض الألعاب:..... 105

د-وصف بعض العادات الخاصة:..... 105

خاتمة..... 107

- قائمة المصادر والمراجع :..... 113

االملاحق. 117